

تصدرها جمعية العاديات

٧٥ عامًا
على اكتشاف أوغاريت
(ملف)

الزراعة للمرأة.. والصيد للرجل

المزارات في بُصرى الشام

اكتشاف قبر المعرّي

مصياف تبحث عن ذاتها

أسطورة النواعير

بدوي في عرس حلبي

أشعار الترقيص عند الأمّهات

تقاليد الكناسة في كتاب البدّاد

العدد الأول - صيف ٢٠٠٤

العاديّات

مجلة فصلية تُعنى بشؤون التراث والفكر
تصدرها في حلب جمعية العاديات السورية
بموجب الترخيص رقم ٢٠٠٣/٧٨٧٣

المدير المسؤول رئيس مجلس الإدارة
محمد قجة
رئيس التحرير زكي حنوش
مدير التحرير محمد جمال طحان
المدير التنفيذي تميم قاسمو

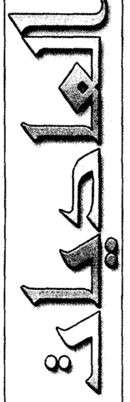
شارك في التحرير
نجوى عثمان - سعد بساطة
عبد الله حجار - حميدو حمادة

الاشتراك السنوي

سورية: ٣٠٠ ل. س "بدون أجور بريد"
٤٠٠ مع أجور البريد
الدوائر الرسمية والمؤسسات
والهيئات العامة: ١٠٠٠ ل.س
خارج سورية: ٥٠ دولاراً أمريكياً
ثمن النسخة في سورية: ٧٥ ل.س

مجلة العاديات: حلب - ص .ب ٦٤٧٤
هاتف وفاكس: ٢٢٦٧٦٧٤ - ٢٢٨٥٧٣٠
البريد الإلكتروني:
Email: adyat@scs-net.org





شروط النشر في المجلة

يسر أسرة تحرير مجلة العاديات أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الكتاب والمثقفين والباحثين في التراث والفكر.

وترى أسرة التحرير أن تكون المواد المرسلة وفق الشروط الآتية:

- ❖ أن تراعي المادة المرسلة قواعد البحث العلمي من حيث الموضوعية والمنهجية وذكر المصادر والمراجع.
- ❖ تراجع المواد المرسلة من قبل أسرة التحرير، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حال عدم نشرها.
- ❖ تفتح المجلة أبوابها للحوار حول الموضوعات المنشورة.
- ❖ ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية.
- ❖ ألا تتجاوز المادة المقدمة للنشر عشرين صفحة، و أن تكون مرفقة بالصور والمخططات الموضحة للموضوع.
- ❖ الآراء الواردة في المجلة تمثل وجهة نظر أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.
- ❖ يحصل المساهم في المجلة على نسختين مجانيتين من العدد الذي ساهم فيه.
- ❖ توجه المراسلات باسم مدير التحرير.

ترسل المواد إلى المجلة عن طريق بريدها الإلكتروني أو على قرص مرن مرفق بنسخة مطبوعة على الورق.

العنوان البريدي: ص. ب ٦٤٧٤ حلب، سورية.

أو تسلم باليد في جمعية العاديات، شارع اسكندرون، جانب صالة معاوية

ننتظر مساهمتكم في تحرير هذه المجلة سواء بالكتابة فيها أو تقديم أي اقتراح يفيد في تحسين أدائها، وجعلها لائقة بجمعيتنا العريقة.

التحرير

العاديات.. التاريخ والهدف



تُعتبَر جمعية العاديات من أقدم الجمعيات الآثارية في الوطن العربي. في بداية إنشائها اتخذت اسم (جمعية أصدقاء القلعة والمتحف) وكان ذلك في ١٩٢٤/٨/٢ وتحولت فيما بعد إلى جمعية العاديات السورية في مطلع كانون الثاني ١٩٣٠.

وتحقيقاً لغايات الجمعية سعى الآباء المؤسسون إلى إصدار أول عدد من مجلتها (مجلة العاديات السورية) فكان العدد الأول في شهر أيار ١٩٣١ بريادة المؤسس الأول المرحوم الشيخ كامل الغزي، واستمرت المجلة تصدر شهريا حتى عام ١٩٤٠، وكانت المجلة الأولى من نوعها - المهتمة بالآثار- في سورية والوطن العربي، إلا أنها توقفت عن الصدور بعد هذا التاريخ بسبب قيام الحرب العالمية الثانية. ولكن الجمعية من خلال حرص أعضاء مجالس إدارتها المتعاقبة بادرت منذ عام ١٩٧٥ إلى إصدار كتابها السنوي (عاديات حلب) بالتعاون مع جامعة حلب..

وبقي الحرص المدعم بالحس الوطني والقومي والإرادة قائما ومستمرا، وكان الطموح إلى إعادة إصدار المجلة إضافة إلى الكتاب السنوي (عاديات حلب) واضحا وملحا منذ نهاية النصف الثاني من عقد التسعينات في القرن الماضي إلى أن اقترن ذلك بالحصول على الترخيص بالإصدار في شهر تشرين الأول ٢٠٠٣ وصدور العدد (صفر) من مجلة العاديات هذه في الربع الأول من العام ٢٠٠٤، مقترنا بترحيب كل المخلصين والمهتمين من أعضاء الجمعية وأصدقائها وكذلك الجهات الرسمية.

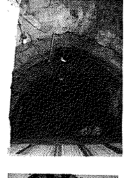
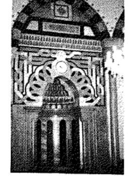
وها نحن نصدر العدد الأول مستلهمين همتنا وطموحنا، ونشاطنا وإصرارنا، من طموح الآباء المؤسسين لنسجل لهم في هذه المناسبة كل الاحترام والإجلال والتقدير، ونسجل تقديرنا وامتناننا أيضا لكل الذين شجعونا على الاستمرار ماديا ومعنويا.

نرجو أن يكون تشجيعكم لإصدارنا هذا نافذة أملنا في الاستمرار، وليكن النقد البناء الموضوعي بشفافية وإخلاص -قبل الثناء- موضع اهتمامكم الأول لبلوغ الهدف والوصول إلى الأفضل، مع كل الاحترام.■

رئيس التحرير





الغلاف الأمامي: بوابة أوغاريت ـ رأس أوغاريت ـ زقاق قديم.

الغلاف الخلفي: رقصة العروس للفنان شريف محرم.

الإخراج وتصميم الغلاف: محمد أبو الخيل.

يضم أرشيف جمعية العاديات رسالة نادرة بخط المرحوم خير الدين الأسدي يذكر فيها ملاحظات على بعض الممارسات المشوهة للخصائص الأثرية في الجامع الأموي في حلب. كتبت هذه الرسالة غير المؤرخة منذ حوالي أربعين عاما، وفيها تظهر رهافة الحس الأثري للعلامة الأسدي.

الأسدي م. خير الدين

رئيس جمعيتنا الجليل

زرت الجامع الأموي في مدينتنا ولفت نظري أن يد الجهالة في القرن العشرين تشوه معالم الآثار فيه وتخلع على فن أسلافنا القدامى ثوبا طمس الروعة والجمال وإليكم ما لاحظته :

١- أقيم في الصحن بناء من الأسمنت حقير حول بئر لا يتناسب أبدا مع الصحن البهيج العظيم الذي لم أشاهد له مثيلا في استنبول ومصر ودمشق وبغداد وأصفهان وطهران ولقد أقام أسلافنا القدامى في الصحن متوضأ ومنهلا وساعة زوالية ودلة وكلها آية في الفن تواكب جمال الصحن

٢- طليت قمة المئذنة بالكلس كما دهن درابزين المئذنة بالأخضر، وكلا اللونين لا يتناسبان مع لون المئذنة هذا اللون النحاسي الذي كستها إياه لبقة الشمس والزمن

٣- أقيم في قمة المئذنة أربع لوحات خضر كتب عليها : لا إله إلا الله محمد رسول الله . إن هذه اللوحات عبث بطابع هندسة المئذنة وتحول عن التصميم الأساسي وغشاء يستر ما وراءه من لون الحجر الأصلي وهيكل البناء

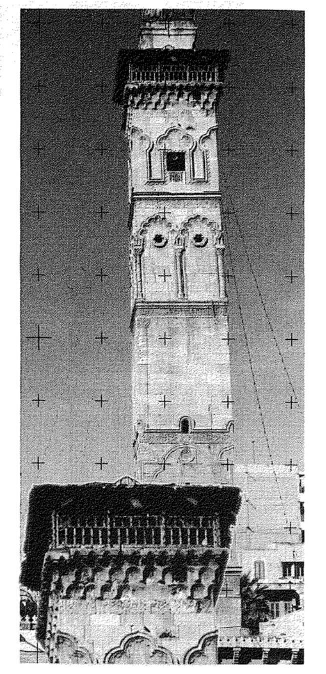
٤- أحدث باب أعلى باب المنبر : هذا المنبر العجيب الذي لا يضاهيه في زخرفه منبر إلا منبر المسجد الأقصى فإنه يماثله تماما لأن صانعهما فنان واحد حلبي

٥- سترت جدر مرقد زكريا الثلاثة بهذه الجدر الملبسة بالقيشاني سترت ببعض قطع من القاشاني تافهة كما لم توصف محتويات الضريح وصفا فنيا لأن الأمر منوط بخدم الجامع

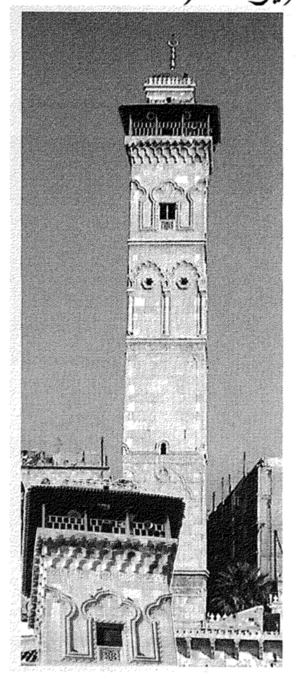
حضرة الرئيس

إن مزايا الجامع الأموي البنائية تنحصر في أربعة أمور : المئذنة والصحن والمنبر والمرقد وكل هذه الأربعة مشوهة مما نأسف له ، وزيادة على ما تقدم زينت جدرانه القبلية ببعض لوحات عليها صحة العامية وخطها وفيها ذكر أشياء لا تعتبر من الشريعة الإسلامية كالعزير وغيره و.. فأتقدم بكتابي هذا راجيا تأليف لجنة من الفنيين والمهندسين لدراسة الموضوع وتقديم تقرير بذلك إلى مديرية الأوقاف . ولكم الاحترام .

مئذنة الجامع الأموي الكبير بحلب



قبل الترميم



بعد الترميم

بالمقارنة بين صورتي المئذنة قبل وبعد أعمال الترميم التي جرت للمئذنة مؤخرا، يظهر أنه قد أزيل الدهان المشوه لقبتها وكذلك اللوحات المعدنية المثبتة فوقها، وجددت المظلة الخشبية المهترئة بنفس التصميم والأبعاد. كما رممت الحجارة المهترئة في الجوسق فانكشف شريط كتابي مخفي تحت اللياسة كان يؤرخ للتاريخ الحقيقي لانتهاء بناء المئذنة. كذلك فقد تدارك المرممون باقي ملاحظاته، فلتهنأ روح الأسدي..

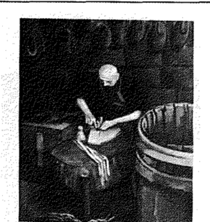




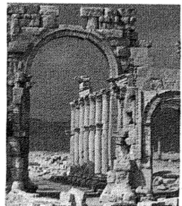
في العدد القادم

ملف «جمعية العاديات في عامها الثمانين»

«عدد مـــــــزدوج»









ملفات مقترحة للأعداد القادمة

١- التراث العلمي في الحضارة الإسلامية. (بالتعاون مع مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة).

٢- ملفات تتناول التاريخ والآثار والتراث لمناطق بلاد الشام.

٣- التراث غير المادي وضرورة توثيقه.

٤- الحياة الفكرية في بلاط سيف الدولة.

٥- الفلسفة المعمارية في المدن الإسلامية.

أبواب ثابتة في الأعداد القادمة

- حلب في عيون المغتربين/الزائرين.
- من الموسوعة التراثية.
- من البيت الشامي.
- كتاب العدد.
- حوار العدد.
- عين العاديات (أقوال مهمة تتعلق بالعاديات منشورة في الصحف والمجلات).
- لوحة العدد.
- من أرشيف الجمعية.
- ندوة/محاضرة.
- أعلام من تاريخ العاديات في سورية.
- آثار في خطر.

الزراعة للمرأة.. والصيد للرجال

محمد جمال طحان*

كان الإنسان القديم منذ عشرة آلاف سنة مضطرا إلى الاكتفاء بجمع الثمار التي تنتجها الطبيعة، فيقضي أيامه بالتقاط الفواكه والجوز والحبوب البرية، ثم تعلم غرس بعض البذور في التربة، ليحصل على غلة إضافية. وهكذا تم ابتكار الزراعة التي تعد أهم ما أنجزه الإنسان على مر العصور. وبدأ يعرف النباتات السامة ويستبعدها ليغرس البذور الصالحة للأكل مستعينا على ذلك بعصا الحفر التي يستخدمها أيضا في جني المحصول، ومنذ ذلك الوقت بدأ يوفر من الطعام ما يفيض عن حاجته.

غير أن ثورة العصر الحجري تجاوزت ابتكار الزراعة إلى اختراعات أخرى متوالية رفعت مستوى أداء الفلاحة، وزادت المحصول. فقد اخترع آلات حرث التربة وجني المحصول وأساليب تخزين الثمار وطرائق الطهو.

وقد احتاج القمح والشعير إلى فصلهما



عن القشور بالدرس والتذرية ثم طحنهما دقيقا بواسطة هاون أو بواسطة الرحى، وهو يد حجرية على هيئة قرص الشمس يتم حك الحبوب بها بشدة حتى تصبح دقيقا. ثم ابتدع الإنسان تحويل الدقيق إلى رقائق، ثم استخدم الخميرة بطريقة تثير

* باحث في الفكر العربي.

دقيقاً. ثم ابتدع الإنسان تحويل الدقيق إلى رقائق، ثم استخدم الخميرة بطريقة تثير الإعجاب ليحوّله إلى رغيف ينتفخ بعد طهيه داخل تنّور خاص ابتدعه لهذه الغاية.

وإذا كان الرجل قد اختصّ بالصيد، ثم تحوّل إلى راعٍ حين بدأ باستئناس الحيوان للسيطرة عليه، فقد كانت الزراعة من مهامّ المرأة التي راحت تضيف الخميرة إلى عصير الحبوب والعنب ممّا أدّى إلى صناعة الجعة والخمر التي كان الكهنة في الرافدين ومصر القديمة يشربونها ويقدّمونها قرابين إلى الآلهة من أجل إنتاج وفير.

ومع قدوم الألفية الثالثة قبل الميلاد عمت المسكرات أوروبا وآسيا الصغرى واستلزم ذلك صنع الأواني والدنان.

وأكّدت الاكتشافات الحديثة في سورية على أهميَّة منطقة حلب ووادي الفرات الأوسط الذي لعب دوراً في أكبر ثورة عرفتها البشرية، خلالها تحوّل الإنسان من كائن يعيش ضيفاً على الطبيعة بالتقاط ثمار الأرض والصيد، إلى كائن بدأ ينتج قوته، وذلك عندما اكتشف الزراعة وطرائق تدجين الحيوان، وقد ترافق هذا التغيّر المادي بتغيّر فكري سمح برؤية هذا العالم رؤية جديدة تتميّز بثورة في الرموز والقيم والأفكار.

الزوجة العاقر مؤذية للحديقة

وفي الكتابة التصويريّة المصرية (الهيروغليفية) نجد قدماء المصريين يرمزون للبيت بالأم، ليس لأن المرأة تلد الأجنة وحسب، بل لأنها أيضاً تمكّن أبناءها من العيش وذلك من خلال قيامها بمهام الزراعة. ولذلك صوّرت المرأة على أنها مصدر الخصب ومصدر الحياة. وكانت الآلهة الكبرى عند الشعوب الزراعية من اللواتي يحيين الأرض بعد موتها فتزهر وتثمر وهكذا اتّخذ القدماء في بلاد مابين النهرين الربّات الأمهات تيامات وننهور ساج وعشتار، كما اتّخذ المصريون ايزيس.

وما زالت خصوبة الأرض في المجتمعات الزراعية إلى يومنا هذا مقترنة بخصوبة النساء، وكثيرون يعتقدون أنه ينبغي أن تقوم النساء بزراعة القمح لأن النساء يعرفن كيف ينجبن الأطفال. كما يعتقدون أن الزوجة العاقر مؤذية للحديقة.

ولكنّ الانقلاب الذي حدث بعد ذلك، كان بسبب اهتداء الرجال إلى تسخير الثيران في حرث حقول شاسعة، في حين كانت النساء يكتفين بزراعة بقع صغيرة وحسب. وهكذا دخل الحيوان في مجال الزراعة، وبرز دور الرجل بوصفه صاحب الدور الأول في العناية بالزراعة، بالإضافة

إلى عنايته بالحيوان، فبرز الأرباب بدلاً من الربّات وغدت الآلهة المقترنة بالزراعة مذكّرة مثل اوزوريس في مصر وباخوس في اليونان.

وحين توسّع الرجال في القيام بالأعمال المهمة، فرضوا أنفسهم في المجتمع وهيمنوا على المدن المتنامية وعدّلوا الثقافة على صورتهم فقام الأرباب مكان الربات.

وهكذا نشأت المدن التي كانت ناتجاً ذكورياً، كما كانت القرية في العصر الحجري الحديث تعكس الخصائص الأنثوية.

كان ظهور الرموز الذكرية انعكاساً لسلطان الرجال فبدأ تكرار الخط المستقيم.. والمستطيل والبرج.. بدلا من الأشكال المستديرة التي كانت من سمات القرى الأولى.

وقد خلق رجال المدن النظام الملكي أما القرى فقد كانت تنتخب بعض الرجال لفترة مؤقتة، ولهذا كانت تتسم بالديمقراطية.

كانت تحب زوجها

ويبدو أن تأثير المحراث لم يقتصر على تمكين الملوك من التحكم في المدن، بل امتد تأثيره ليشمل الأسرة حيث فرض الآباء إرادتهم.

وانفرد الرجال بالزراعة وبالحرف الأخرى، واخترعوا عجلة أبدت فاعليتها في صناعة القدور، وجعلوا الأسرة لا عشيرة المرأة هي الأساس للتنظيم الاجتماعي.

وبدأ الرجال يسنّون قوانين تؤكد سلطانهم وتضفي عليه الشرعية. ومن أقدم المدونات القانونية قوانين الملك حمورابي ملك بابل في بلاد ما بين النهرين. الذين دُوّن حوالي /١٧٥٠/ ق. م.

وبموجب تلك القوانين، كان بوسع الزوج أن يقدّم زوجته لدائنيه ضماناً لديونه، ولم يكن القانون يرغمه على إيفاء ديونه، مادامت الزوجة ضماناً لتلك الديون. وقد أصبح نظام الاستدانة بضمانة الزوجة نظاماً مربحاً للغاية في تجارة الرقيق.

وشواهد القبور التي كان يشيدها الأزواج الرومان الورعون لزوجاتهم تُظهر كيف كان الرجال ينظرون إليهن: "كانت تحب زوجها.. أنجبت ولدين.. لقد حافظت على البيت ورعته.. ونسجت الصوف.." هكذا كانت تذكر النساء في العصر الحجري الحديث.فهل اختلفت تلك النظرة إلى المرأة في القرن الحادي والعشرين، وإذا كان هناك ثمّ اختلاف، فهل هو اختلاف يدلّ على تطوّر النظرة تلك، أم على تخلّفها ؟!! ■

مصياف تبحث عن ذاتها

محمد الراضي*

لم يكن عملاً مخططا له، بل كان نتيجة للحراك الاجتماعي لعمل شيء ما للإحساس بالوجود، لم تكن الحرب على العراق قد وضعت أثقالها وما رافقها من تحرك جماهيري وفجأة همد كل شيء.. لقد سقطت بغداد وأسقط في يد الجماهير وقعد المواطن يترقب المستقبل بعين حائرة.. ما السبب؟! وهل نستطيع مواجهة هذه القوة العاتية؟ إن من ينظر إلى واقعنا يستنتج بيسر إننا غير قادرين، لأننا ببساطة غير متصالحين مع ذاتنا، وكان الخوف كبيراً من التوجه نحو التقوقع والانطواء والابتعاد عن القضايا العامة والاجتماعية.

وجاء الجواب من مجموعة رفضت السكينة، ببساطة قالوا يجب أن نبدأ من أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لنغير أنفسنا ونتحمل مسؤولياتنا تجاه ذاتنا وتجاه الآخر وتجاه المحيط علينا أن نكون نموذجا للتعايش لنستحق نعمة الحياة.

يومها توجهت مجموعة نسجت جلبابها من الواقع البسيط، للعمل من أجل البيئة أي من اجل الإنسان، لقد كان حوارا بسيطا قاد إلى عمل صغير بشكله عظيم بأهميته وكانت الانطلاقة لعمل شيء في مصياف، فقصدت المتنزهات والأحراش القريبة من البلدة وتم تنظيفها بوجود المتنزهين وبمساعدتهم وتجاوبهم مع العمل، وتكررت التجربة بنفس الطريقة وبطرق أخرى حيث تم تشجير بعض الأماكن والشوارع في المدينة وتشجير مقبرة.

---

* مهندس معماري - مصياف

وكان الهمّ المشترك للمشاركين هو نشر ثقافة تهتم بالمكان، ثقافة تهتم بالآخر. لقد آمنوا بفكرة بسيطة وربطوها بالعمل فنجحوا، لقد اختاروا موضوعا لا يختلف عليه اثنان فالطبيعة والبيئة للجميع ولذلك ضموا إلى صفوفهم مواطنين من مختلف المشارب والألوان يوحدهم همّ واحد، والحب وحده هو الذي يجمعهم. يومها اكتشفوا أن الآخر يمكن أن يكون جميلاً انه ممكن أن يكون أهلا للثقة وان هناك أعمالا تجمع ولا تفرق هذه الأعمال تعتمد على الحس الفطري لدى الإنسان لتصحيح الخلل الحاصل مع الطبيعة ومع الأخر.

ثقافة أكياس النايلون:

مصياف مدينة الهواء حيث يحتل الهواء النسبة العظمى من أيامها وهكذا كانت منذ القدم فهناك مثل يقول "لولا هواها ما سكنّاها"، ويذكر أهل مصياف أن هواءها عندما كان نقيا لم يكن يثير الغبار وذلك لغلبة الطبيعة الخضراء على محيط البلدة ولكن بعد انحسار اللون الأخضر بسبب التعدي على الطبيعة أصبحت الرياح تثير زوابع من الغبار تعيق المشي في الطرقات وتجعل المنازل مكباً للرمل والأتربة.

وهذا أمر هين إلى حد ما فعندما تهطل الأمطار تغسل الغبار والأتربة وينتهي كل شيء، ولكن برزت ظاهرة جديدة هي انتشار أكياس النايلون بمختلف أشكالها وألوانها فأصبح الهواء يثير زوابع من الأكياس تظل تجوب الفضاء حتى تستقر على غصن شجرة أو نبات شائك على الأرض وهذه الأكياس لا تغسلها أمطار ولا تفنيها عوامل الطبيعة حتى أن الناظر إلى المناطق الشرقية للمدينة يرى أحراشا استبدلت أوراقها بأكياس النايلون ونظرا لمحدودية إمكانيات مجلس المدينة فان الدّوارات والحدائق المليئة الأشواك المكسية بأكياس النايلون أصبحت منظرا مألوفا لدى الأطفال أصبح جزءا من ثقافتهم البصرية

كانت تلك المجموعة ترى أن هذا الوضع شاذ، ولا يمكن الانتظار حتى تتوفر الامكانات لمجلس المدينة، فأولويات مجلس المدينة كثيرة فهناك المجاري والطرقات ثم الإنارة ووو... الخ

لذا قررت المجموعة أن مهمتها ليست إزالة النفايات والتشجير فقط، بل هي رفع الحس الجمالي عند الأجيال القادمة، فتم طرح موضوع قديم جديد هو موضوع الملتقى النحتي هذا الموضوع الذي لم ينجُ سابقاً لأنه على أن يكون عملا مأجورا، وكانت المبالغ التي وردت في دراسة المشروع هي اكبر من إمكانية مجلس المدينة ومن إمكانية المساعدة لأي جهة أخرى قد يطلب منها ذلك، فأهمل وبقي حلما بعيد المنال.

الأطفال الصغار يحلمون أحلامًا كبيرة[1]

من واقع عملها في مجال البيئة حلمت تلك المجموعة بأن يتم الأمر بشكل تطوعي، فانساقت مع الحلم وتفاعلت معه، وقامت بخطوات عملية باتجاهه فتم التنسيق مع المركز الثقافي ومجلس المدينة وشكلت لجنة لهذه الغاية ومن ثم تم الاتصال ببعض الفنانين ومعهد الفنون التطبيقية بدمشق، ومن حسن الحظ أن حلم تلك الجماعة تلاقى مع حلم أخر لجهة آخرى فالقائمون على معهد الفنون التطبيقية بدمشق كانوا أيضا يحلمون أن يُخرجوا معسكراتهم الإنتاجية من ضيق المعهد إلى رحابة الهواء الطلق.

اقترب الحلم أن يصبح حقيقة فقد زالت عقبة رئيسية فطلاب و خريجو وأساتذة معهد الفنون التطبيقية وكذلك فنانو مصياف هم أساس جيد لعمل الملتقى، ولم يبق إلا اخذ الموافقات الرسمية، وعرض الموضوع على السيد محافظ حماه فوافق من حيث المبدأ وطالب بتقديم دراسة فتداعت اللجنة إلى إجراء دراسة وافية لمختلف الأوضاع وخاصة الوضع المالي ودرس توضع الملتقى على ارض رحبة ذات كثافة سكانية قليلة لتخفيف إزعاج الساكنين قريبة من مطعم ومدرسة لتامين الطعام وخدمات أخرى يحتاجها النحاتون.

وتم تقديم الدراسة للسيد المحافظ فوافق عليها، ونظرا لمحدودية إمكانيات مجلس المدينة والمركز الثقافي المادية أصبح الموضوع على كف عفريت. عندها واجهت المجموعة وضعا مفصليا إما أن تلغي الملتقى أو أن تعتمد على امكاناتها الذاتية وكان القرار سريعا حيث لا مجال للتسويف إنهم سيعتمدون على امكاناتهم المحدودة وعلى رصيدهم لدى الناس في سبيل تحقيق الحلم المنشود.

عندها تحول الحلم من جديد إلى مغامرة غير مضمونة النتائج، لولا أن كل شخص منهم وطد العزم على أن يقوم بدور اكبر، وقرروا جميعا أن يخوضوا التجربة حتى النهاية مهما كانت النتائج.

وهكذا بدأ العمل من أجل ملتقى "صيف مصياف النحتي" ٢٠٠٤.وطلبت الموافقة من أصحاب الأرض المختارة لإقامة الملتقى، فوافقوا مرحبين. وحضر مدير معهد الفنون التطبيقية الأستاذ أكثم عبد الحميد وأساتذة المعهد وتم اختيار المناطق المناسبة لإحضار الأحجار بالنوعية المطلوبة ودعي أصحاب السيارات الشاحنة والجرارات والجرافات إلى نقل الأحجار التي تبرع بها أصحاب الأراضي ومناشر الحجر إلى موقع العمل،

١- داغستان بلدي - رسول حمزاتوف.

فحضر عدد كبير منهم، ونقلوا الحجارة متطوعين فيما يشبه الاحتفال الكرنفالي، انه حصاد الحجر، كان الكل مسرورا بهذا العمل الطوعي المجاني طالما انه في خدمة البلد. وهكذا نقلت الأحجار ووزعت في موقع العمل، وقامت مؤسسة الآغاخان والعاملون فيها بتركيب المظلات على السقائل المعدنية وبقيت مشكلة الكهرباء فحلت بتركيب عداد ثلاثي مؤقت وتم مَدّ الكابلات اللازمة بالتعاون مع عمال البلدية.

وتم التعاقد مع مطعم "زاد الخير" على تامين كافة متطلبات الفنانين من الطعام وبتعاون ممتاز من إدارة المطعم، ساهمت بتقديم طعام بمواصفات عالية بأسعار منخفضة دعما للمشروع.

وحلت مشكلة السكن على الشكل التالي فقد قدم احد الناشطين بيتا يتسع لكل الطلاب وتم استئجار بيت للطالبات كما تم إنزال الأساتذة في الفندق وهكذا بدأ الحلم بالتحقق، وكان حلما لأنه لم يكن هناك أفق لتمويل كل ذلك سوى الثقة بالناس الذين لم يتوانوا عن تقديم العون.

كانت التبرعات على شكل أعمال ومواد وخدمات وتخفيضات على الأسعار وكذلك مبالغ نقدية، وبلغ الذين قدموا مساهمات حوالي خمس وثمانون مساهما لا يتسع المجال لذكر أسمائهم فعذرا منهم.

ولم تمض أيام على بدء العمل حتى أصبح المشروع على سكة الأمان وأصبحت كل الاحتياجات مؤمنة.

وصل النحاتون إلى مصياف وكانوا أستاذين هما الأستاذ الفنان عماد كسحوت والأستاذ الفنان إياد بلال وستة عشر طالباً وطالبة وخريجا هم: ماهر عبدو - مارينا هاكوبيان - سماح عدوان - ريم زيود - رامز منزلاوي - محمد زّيار - عصام داود - كنانة الكود - محمد حاج اسماعيل - تميم صبري - طارق أبو كرم - همام السيد - مروة شاهين - عمار السحار - سامر الروماني - ريم الحلو، بالإضافة إلى فنانين من مصياف هما الفنان علي نيوف والفنان عبد الرزاق عبود. كان المشاركون يمثلون مختلف المناطق السورية، وحضر إلى الملتقى النحات الأرجنتيني المقيم في سويسرا كارلوس وذلك بالتعاون مع معهد سرفانتيس، ومن المعروف عن الفنان كارلوس تعاطفه مع القضايا العربية ففي معرض حديثه عن النحت قال ببساطة إن الحجر في الطبيعة قد لا يعني شيئا لكنه بيد النحات أو بيد الطفل الفلسطيني يعني الكثير، وقد وعد كارلوس باستضافة فنانين من مصياف في سويسرا حيث سيتيح لهم القيام بعمل منحوتات، وعلى حد تعبيره، سوف يقول للناس هناك أن

هؤلاء عرب مسلمون ولكنهم بشر عاديون ليسوا كالصورة النمطية التي ترسمها وسائل الإعلام؟! وتعبيراً عن تضامنه، كانت مشاركته في الملتقى مجسماً بيئياً صنعه من بقايا أغصان الأشجار التي جمعها من المناطق المحيطة بالملتقى وكان المجسم على شكل هلال، يحتاج هذا العمل حتى يكتمل إلى زراعة نبات متسلق جانبه ليتغطى بالخضرة.

بدايةً زار النحاتون حصن مصياف المنيع واستمعوا لشرح واف عن تاريخ هذه القلعة التي شهدت الكثير على مر العصور وكان ذلك ملهما فيما أنتجه في الملتقى.

بعد وصولهم مكان العمل تفقد الفنانون الأحجار اختار كل الحجر الذي يناسبه وقام بالتشاور مع الأساتذة وبالاستفادة من شكل الحجر، بصنع ماكيتات مصغرة من الصلصال للأعمال التي سينفذها ومن ثم بدأ العمل بهمة عالية.

وانهالت على الفنانين دعوات إلى الغداء والعشاء والحفلات من كل حدب وصوب ولم يستطع الفنانون تلبيتها لكثرتها، فالملتقى للعمل وليس للترفيه، لكن الترفيه لم ينقصهم، فقد تكفلت بعيدا عنهم فقد كانت لهم وسائلهم البسيطة للترفيه شاحنة الحاج علي الذي تطوع بمرافقتهم دائما ينقلهم كي يجوبوا الجبال والقرى القريبة ويتمتعوا بطبيعة المنطقة الرائعة وترحيب الأهالي.

وكان أجمل ما في الملتقى هو التفاعل الذي حصل بين الفنانين والناس فقد كان أهل مصياف يزورون الملتقى ليتعرفوا على الفنانين وفي بعض الأماسي يحضر مطربون و عازفون محليون كي يحيوا للفنانين حفلات بسيطة في مكان العمل، وكان تجاوب الفنانين مع زوارهم سريعاً حيث تنصب حلقات الدبكة ويبدأ الراقصون والغناء حتى أوقات متأخرة من الليل، ليستيقظوا مع الصباح فيتابعوا عزف موسيقا الحجرمن جديد.

كما شارك المركز الثقافي بتنظيم مجموعة من المحاضرات الفنية والطبية مواكبة للملتقى.

ولم يخل العمل من متاعب فقد كان الطقس سيئاً فالحرارة مرتفعة حينا والرياح شديدة أحيانا أخرى والمظلات تتمزق والكهرباء تنقطع وإصابات العمل تحدث من حين لآخر فقد أصيب عدد من النحاتين وعولجوا بالمجان في مشفى العناية.

زار الملتقى التلفزيون والعديد من الفنانين والصحفيين المسؤولين وعلى رأسهم السيد محافظ حماه راعي العمل الذي تكرم على الفنانين المشاركين بمكافآت نقدية رمزية وزعت برعايته في حفل الختام مع شهادات تقدير باسم

مجلس المدينة و المركز الثقافي وكان حفلا ختاميا ساهرا ضمته مدرجات فندق مصياف وظلت الموسيقى تصدح حتى الفجر والفنانون لم يجلسوا إلى طاولاتهم هم وأصدقائهم إلا قليلا بل ظلوا يدبكون ويرقصون حتى تسربت خيوط الشمس من بين الأشجار وجاء الغد موعد الفراق كانت هناك غصة لدى الجميع مودعين ومغادرين والكل لسان حاله يقول كيف مر الوقت سريعا وهل من عودة؟ لا بد من عودة.

جهود جديدة يجب آن تبذل

قيل الكثير عن الملتقى غالبية الناس شجعت الفكرة واستحسنتها وكذلك ووجهت انتقادات قيل أن هناك الأهم فما هو الأهم؟ للفقراء في مصياف جمعيتهم الخيرية هل ستقولون لو توجهنا لإعانتهم؟ وكذلك أصحاب العاهات فهنالك جمعية للمعاقين ولكن من يعتني بالمواطن المعاق.. المعاق عن المشاركة المعاق عن التواصل، المعاق عن الفعل، المعاق في علاقتة مع الأخر، في علاقته مع البيئة، في علاقته مع الجمال، وفي علاقته مع الله.

إن سرعة تقدم العلوم والتكنولوجيا والمعلوماتية تعطي للإنسان مفاتيح شتى لحل جميع مشاكله المادية منها أم المعنوية ولكننا نقف عاجزين مشدوهين أمام كافة المشاكل التي تواجهها الإنسانية ونواجهها نحن بشكل خاص فأنّا نظرت تجد التلوث كالتلوث البصري والسمعي والشمي والغذائي والذهني، تلوث الهواء والماء إلى القطع الجائر للغابات والحرائق المتعمدة وغير المتعمدة واستهلاك حق الأجيال من موارد الطبيعية من دون حساب، إلى الترفع الحراري واضطراب المناخ واكتظاظ المدن ونمو ظاهرة مدن الصفيح والمجاعات واختلال القيم الثقافية ونمو العنصرية وتراجع القيم الإنسانية، مما يبدو أن الإنسانية تسير على غير هدى كجسد من دون رأس فكيف سنوجه البوصلة لتساعدنا على اتخاذ الوجهة المناسبة في لجة هذا المحيط المتلاطم الأمواج.

انه من الصعب جدا دفع الأفراد للخروج من ذواتهم للتفكير في حاضر ومستقبل العالم والإنسانية ومن ثم دفعهم للخروج من التنظير وإخراجهم من العطالة هؤلاء تنقصهم المحرضات للفعل العملي وينقصهم اختبار الأشياء العملية وهم أشبه بهؤلاء الذين تكلم عنهم انتوني دوميلو في هذه القصة القصيرة:

المستكشف

عاد الرحالة المستكشف إلى قومه، الذين كانوا تواقين لمعرفة شيء عن الأمازون. ولكن أنّى له أن يعرب بكلمات



عـن المشـاعر الـتي فـاضت في قلبـه حـين رأى الأزهار الغريبة وسمع أصوات الليل في الغابـة حـين أحـس بخطـر الحيوانـات المفترسه، أو جدف عبر منحـدرات النـهر الغادرة؟

قال لهم: "اذهبوا واكتشفوا بأنفسكم" ثم رسم لهم خارطة للنهر ترشدهم أما هـم انقضـوا علـى الخارطـة وأطروهـا في دار البلديـة، ثم استنسـخوها. فكـل مـن امتلـك واحدة لنفسه ظن نفسه خبيرا بالنهر. أليس يعـرف كـل منعطـف وانحنـاءة فيـه؟ أليـس يعـرف مقـدار عـرض النـهر وعمقـه؟ أليـس يحفظ غيبا أمـاكن الانحـدار فيه ومواضـع الشلالات؟

يقـال أن البـوذا كـان يمتنـع بـإصرار عـن الانسياق بالكلام عن الله.

أغلـب الظـن انـه كـان عالمـا بمخـاطر رسم الخرائط للمستكشفين النظريين.)[1]

في الوقـت الراهـن نـرى أن وسـائل الإعـلام قـد حلـت مكـان الطـرق القديمـة التي كانت تغذي القيم الجماعية، فأصبح الفرد سجين أمام شاشة التلفزيون يتلقـف ما تقدمـه لـه في علاقـة سـلبية مـن طـرف واحـد، تعـزز قيـم الفرديـة، وأسـير علاقـة شبه تنويم مغنطيسـي ومنقطعا عـن الأخـر ولا يحمل أية مسؤولية تجاهه فيوميا نـرى صـور الأطفـال العـراة الجيـاع منتفخـي البطون من دون أن يحرك ذلك مشاعرنا، هذه السلبية يجب أن تختفي بتفعيل العمل الجمـاعي، بتفعيـل المبـادرة كيـف يمكننـا الاتفاق على مشاريع مشتركة دون الإخلال بالوضعيـة المتمـيزة لكـل منـا؟ في منـاخ السـلبية والعطالـة الراهنـة، كيـف يمكننـا إعـادة الصحـوة الإنسـانية؟ هـل الحـوادث البيئيـة والسياسـية الـتي تحـدث كافيـة لإعـادة الوعـي مـن حـادث تشـرنوبيل إلى الحـادي عشـر مـن أيلـول، هـل تحـرض علـى عمل شيء؟ يجب أن تكون حـافزا للذهـاب إلى مشاريع عملية يشارك بها الجميع كل حسـب إمكانياتـه وتهـم الجميـع مـن دون استثناء ويشعر بها كل فرد انه معني بذلك وانـه يشـارك بـالعمل الجمـاعي مـن دون ضرورة أن تزول خصوصيته.

انتهى الملتقى ولكن لم ينته العمل، الأعمـال الفنيـة الجـاهزة تحتـاج إلى تجـهيز الأمـاكن لوضعـها بهـا. ثمـة عمل جماعي أخر مطلـوب ثمـة جـهود مخلصة جديدة يجب أن تبذل لتلتقط الكـرة حيـث وصلـت وتنطلـق بهـا إلى مرماها.■

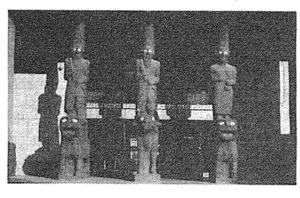
١- أغنية الطائر -انتوني دوميلو.

الثقافة والمتاحف

عبد الله حجار*

إنّها لفتة كريمة وواعية من وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف حين أصدرت تعميمها الرقم ٨ والتاريخ ٢٠٠٣/١/٢٠ بالسماح خلال العطلة الانتصافية فقط (١٨- ٢٠٠٣/١/٣٠)، حيث لا سياح ولا من يحزنون، بدخول الأطفال وتلاميذ المدارس الذين برفقة أحد والديهم مجانا إلى المتاحف، ويعبّر ذلك عن البعد الإنساني الحريص على تثقيف أبناء الشعب.

بينما كنت أقوم بزيارة أحد الزملاء في متحف حلب الوطني، شاهدت عائلة مؤلّفة من الوالدين وعدة أولاد من مختلف الأعمار بين سن الخامسة والرابعة عشرة يدخلون المتحف مستفيدين من مبادرة وزارة الثقافة، ومضوا يتأملون المعروضات فيه دون شرح، تمنّيت لو وجد متطوّع أو متبرّع من مديرية الآثار أو جمعية العاديات أو مديرية التربية يقوم بالتجوال مع هذه العائلة في أجنحة المتحف



يشرح لها مسيرة الحضارة في بلادنا. علما أن من بين الأولاد من هو في الصف السادس والثامن فيكلّمهم عن دروس التاريخ والجغرافيا ويشرح ذلك على الخريطة الطبيعية لبلاد الشام أو سورية، وعلى الجداول الزمنية المطلوب توفّرها في جناح الآثار الإسلامية والمبينة للسلالات التي تعاقبت من أموية وعباسية وأيوبيين ومماليك وعثمانيين ..ومواقع القلاع وآثار الجزيرة وماري وأوغاريت وإيبلا وتل حلف وتل برسيب...

وتتداعى الأفكار لتنقلني إلى طريقة التوعية والتوجيه في متاحف برلين وبشكل خاص متحف الآثار الإسلامية وجناح ما

* مهندس، عضو مجلس إدارة جمعية العاديات سابقًا.

يسمى" بالغرفة الحلبية" والشرح الذي يتم فيها للتلاميذ عن قصص ألف ليلة وليلة، حيث يرتدي أحد الأساتذة ثياب سندباد ويجلس في وسط قاعة الغرفة الحلبية المأخوذة من بيت وكيل في حلب، ويبدأ برواية قصص الشرق في أجواء شرقية. بينما تقوم عالمة كبيرة مثل إيفا شترومنغر في متحف شارلوتنبرغ في برلين بتجسيم كيفية صنع النار والعيش في الخيمة ومشاهدة استيطان حضاري قديم في آثار مدينة "حبوبة" على الفرات مع سورها العظيم والتي سكنت في الألف الرابع قبل الميلاد.

ويحزّ في النفس مشهد آخر نصادفه غالبا أثناء زيارة المتحف وهو قيام أحد صفوف المدارس وربما أكثر من شعبة مع معلميهم أو معلماتهم بزيارة المتحف، وينصب همّ الأساتذة إلى حفظ النظام والسير برتابة أمام التماثيل المعروضة دون أي شرح بحيث تنتهي كامل الزيارة للأجنحة بأقلّ من نصف ساعة دون أن يفقه التلاميذ شيئا إذ ليس هناك من يقول كلمة من مسؤولي المتحف أو من الأساتذة. كيف نعدّ التلاميذ للزيارة؟ حبذا لو كان هناك قاعة، وهي موجودة بحلب منذ إنشاء المتحف قبل أكثر من ٤٠ عاما لم تستعمل لغرق أرضيتها وغمرها بالمياه الجوفية المتسربة عبر الأساسات، يتم فيها عرض شرائح مصوّرة مع لوائح جدارية وجداول ومخططات وخرائط للمراحل التاريخية ومراحل ما قبل التاريخ.. وتم شرحها قبل أن تبدأ الجولة في قاعات المتحف المختلفة وبذلك ترسخ المعلومات في ذهن الطالب وتثبت بعد الإجابة على تساؤلاته في حال وجودها.

مع حركة التحديث والتطوير التي تنتهجها بلادنا بقيادة الرئيس المحبوب بشار الأسد، ومع الوعي الكامل لدور الثقافة في حياة الأمة وإنشاء كليات الآثار الناشئة والضرورية مع وجود هذا الزخم الهائل من التلال والمعالم الأثرية المنتشرة في كل شبر من بلادنا الحبيبة، وضرورة الكشف عن هذا التراث الحضاري الضخم ودراسته، ليس فقط من قبل علماء الآثار الأجانب بل من قبل أبنائه لبيان مساهمته في مسيرة الحضارة الإنسانية، بات من الضروري جدا إعادة النظر في هيكلية المتاحف و طريقة العرض فيها وتوسيعها بإضافة قاعات لوسائل الإيضاح أو للمحاضرات أو للعرض أو لعمل النماذج (الماكيت) مع وضع النشرات التوضيحية في كل قاعة وقرب كل تمثال هام . وتأمين كوادر مدربة من خريجي كلية الآثار للقيام بالتجول على الأجنحة وشرح اللقى والتماثيل المعروضة بشكل صحيح لتلاميذ المدارس والزائرين.

ولو تمّت أرشفة جميع القطع الأثرية

الموجودة في كل متحف والتي يتعدى عددها مئات الألوف وقد تتجاوز المليون لتوضع في ملفات الحاسوب وتصنّف بشكل علمي صحيح، فإننا نتبين عندها ضرورة عرض المزيد من هذه القطع الهامة المحفوظة في المستودعات والتي لا مكان لها في خزانات العرض الحالية لتشاهد من قبل المهتمين. لذلك أرى أن نلجأ إلى توسيع مجال الاختصاص فنقوم، بالنسبة إلى المتحف الوطني بحلب على سبيل المثال، بإيجاد مكان آخر شبيه بصالة تشرين ننقل إليه جناح الفن الحديث، ونستعمل قاعته لعرض خزانات منطقة الجزيرة ولقى تنقيبات سد الفرات وكذلك سد تشرين مع وضع الخرائط والمجسّمات المبيّنة لمواقع هذه التلال مع نشرات تبيّن اسم المنقب وتاريخ التل وأهميته.. وبذلك تتمّ بالفعل الفائدة المرجوّة، بينما لا يسعى أحد غالبا لمشاهدة الخزانات المعروضة حاليا في الممر الواصل بين جناح الفن الحديث والجناح الكلاسيكي من الطبقة الثانية من بناء المتحف.

وإذا تم تنظيم العرض والعمل في متاحفنا بالشكل المأمول مع وجود قاعاته العرض المقترحة، يمكن عندها تنظيم محاضرات وجولات على أجنحة المتحف وقاعاته تقدم ضمن برنامج معلن مرة كل ثلاثة أشهر يبين فيه اسم المحاضر، من أساتذة الجامعة أو الباحثين في جمعية العاديات في الآثار والمتاحف أو أحد علماء الآثار الزائرين .. وعنوان المحاضرة أو اسم الجناح الذي ستتم فيه الجولة من المتحف خلال ساعة من الزمن، يجيب المحاضر في نهايتها على أسئلة الحضور.

هذا ما كان يتمّ في السبعينات من القرن الماضي في متحف برغامون في برلين، حيث يقوم أستاذة مثل الدكتورة إفلين كلنجل، زوجة العالم هورست كلنجل الذي كتب أروع الكتب في التعريف بحضارة بلاد الرافدين وبلاد الشام وبخاصة سورية من الألف الثالث وحتى نهاية العصور الكلاسيكية، بالقاء محاضرة خلال ساعة عن الحضارة البابلية في قاعة بابل حيث تنتصب بوابة عشتار والتماثيل الرائعة المجلوبة من بابل، مع عرض كتب الباحثين وما ذكروه عن هذه الحضارة العريقة. وفي كل أسبوع وفي يوم محدد كان هناك أستاذ ومحاضرة في أحد الأجنحة.

كما هناك آلات تسجيل صغيرة محمولة، يمكن استعارتها من مكتب الدخول لقاء مبلغ معيّن، تشرح وبمختلف اللغات المعروفة (الفرنسية، الألمانية، الإنكليزية، الإسبانية، الإيطالية واليابانية...) اللقى والتماثيل المشاهدة في

الأجنحة باتباع الأسهم المبينة خط السير على الجدران. وبذلك يمكن لزائر المتحف عند وضع السماعة في أذنه أن يستمع إلى الشرح المطلوب بلغته الأصلية وبدون إزعاج الآخرين.

ولا ننسى دور المعلوماتية والإنترنيت في تقديم المعلومات عن محتويات المتاحف بأحدث الأساليب، مرفقة بالصور الرائعة عن متاحف مثل اللوفر والبريطاني والمتروبوليتان والفاتيكان والإيرميتاج وسواها.. مما يتطلب تأمين أقراص C.D. عن محتويات متاحفنا تعرض في الإنترنيت بشكل جذّاب ضمن التسويق السياحي لبلادنا. ولا شكّ أن لوزارة السياحة ممثّلة بوزيرها الضليع في مجال المعلوماتية باعا ودورا كبيرا يمكن أن تقدّمه في هذا المجال.

وهكذا نرى أن هناك عملا ضخما ينتظرنا للنهوض بمتاحفنا ومواكبة متاحف العالم الحديثة مما يحتاج إلى كوادر علمية عالية المستوى نأمل أن تؤمنها كلية الآثار وكلية الآداب والعلوم الإنسانية (اللغات الحيّة)، ناهيك عن اللغات الشرقية القديمة التي يجب أن نتقنها إذا أردنا أن نقرأ تاريخنا ونكتبه بأنفسنا لا أن يكتبه علماء اللغات الأجانب لنا، ونحمد الله انه أصبح لدينا في القطر من يستطيع قراءة اللغات المسمارية الشرقية وإن كان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

لقد تبنّت وزارة الثقافة (المديرية العامة للآثار والمتاحف) منذ حوالي عشرين عاما طريقة "المتحف الجوال". حيث يتم اختيار تماثيل ولقى متميّزة من متاحف دمشق وحلب وتدمر وسواها تقوم بجولة قد تستغرق عدة أعوام أو بعض العام، تتنقّل فيها بين عواصم ومدن عدة دول أو في دولة واحدة فقط، تعرض في متاحفها بشكل رائع ولائق، مشجعة بذلك مشاهديها على المجيء الى سورية لمشاهدة المواقع الأثرية التي أخذت منها على الطبيعة، وفي هذا عمل كبير في دعم التسويق السياحي وتنشيطه. وكي لا يصدم السائح عند قدومه لزيارة القطر بمشاهدة الحالة الراهنة للمتاحف، أصبح النهوض بالمتاحف وتحديثها وتوسيعها (صالات وكوادر وطريقة عرض..) ضرورة ملحة جداً إلى جانب الاهتمام بالمواقع الأثرية التي سنتحدّث عنها في مناسبة أخرى.

كما لا زال الحلبيون يحلمون بأن يخصّص أحد المباني التاريخية الهامة المناسبة من أمثال مدرسة الشيباني لتاريخ حلب بجميع مراحله منذ الألف الثالث قبل الميلاد وما قبل وحتى الآن. ويجمع في مكتبة خاصة كل ما كتب عن حلب وبمختلف اللغات مع المخططات

والمسطحات ولوحات الخطوط وصور المباني الهامة .. لتكون تحت تصرّف كل باحث ومهتمّ.

كما أرى تخصيص مبنى مناسب ليضم قطع وألواح الفسيفساء المكتشفة في أنحاء المحافظة وما أكثرها للقيام بعرضها بعد ترميمها ودراستها مع المصدر الذي جلبت منه. وحبذا لو يؤمن مكان واسع بقاعاته مماثل لخان أفاميا أو خان معرّة النعمان يحوّل إلى متحف لعرض فسيفساء أرضيات الكنائس والفيلات فيه وبخاصة المصادرة من مختلف أنحاء المحافظة وبخاصة من منطقة القرى الأثرية في شمال غربي المحافظة. أما إذا تعذّر تأمين المكان فأرى أن يتمّ تخصيص أكثر من جناح في خان أسعد باشا العظم في معرة النعمان، والذي يجري إعداده ليضم إلى متحف المعرة الحالي، توضع فيه لوحات الفسيفساء الخاصة بمحافظة حلب بعد ترميمها ليطلع عليها الجمهور والسياح بدل أن تهمل وتهترىء في زوايا النسيان. أو أن يدرس موضوع إنشاء متحف جديد خاص بالفسيفساء في مدينة حلب أو في منطقة قلعة سمعان التي تحرّكت الهيئات والمؤسسات العربية والدولية مؤخرا للإهتمام بها والعمل على حمايتها وترميمها وإعدادها للتعريف بالتراث والجذب الثقافي والسياحي.

وأخيرا هل يسمح لنا بأن نذكّر مرة أخرى بصالة المسرح في الطبقة الأرضية تحت مبنى الإدارة في مديرية آثار حلب، والتي لم تستعمل منذ إنشاء المتحف قبل أربعين عاما بسبب وجود المياه في أرضيتها؟ ألا يمكن تكليف إحدى الجهات الأجنبية الخبيرة، بعد أن عجزت الخبرة المحلّية لدينا، بإيجاد الحل المناسب لتصريف المياه واستخدام القاعة للغرض الذي أنشئت من أجله. وما أشدّ حاجاتنا إلى أمثالها وبخاصة في مجال العمل الثقافي والمتحفي بشكل خاص. ■

في العدد القادم
ثمانون عامًا
على تأسيس العاديات



المزارات في بصرى الشام

نجوى عثمان*

يبدأ التاريخ الحضاري الواضح لمدينة بصرى مقترناً بالأنباط، فلقد أصبحت عاصمة لهم أيام آخر ملوكهم (رب إيل الثاني) الذي حكم من ٧٠ إلى ١٠٦م.

عام ١٠٦م احتل الرومان في عهد تراجان مدينة بصرى، وضموا المملكة النبطية إلى النظام الشرقي الروماني، وأسسوا "المقاطعة العربية"، واتخذت بصرى مقراً للحاكم العسكري في هذه المقاطعة، وصارت تحمل الاسم "بصرى تراجان الجديدة"، ثم أعطيت درجة عاصمة من قبل فيليب العربي. ولا يعرف التاريخ الذي دخلت فيه المسيحية إلى بصرى، ولكنها في القرن السادس للميلاد كانت مقراً لأسقفية، ثم مقراً لأبرشية مطرانية، ثم تضررت كثيراً أثناء غزو الفرس لبلاد الشام عام ٦١٤ م، وبدأت تفقد أهميتها منذ ذلك الحين.

كانت مدينة بصرى في العصرين الروماني والبيزنطي سوقاً هامة لتبادل السلع المحلية وسلع التجارة الدولية، وكانت تزود القوافل التجارية بالماء والمؤن، وتساعد في عملية التسويق والتخزين والتوزيع، وكان الفيلق المقيم في بصرى يحمي الطريق التجاري مثلما كانت زمن الأنباط، ولذلك سميت بمدينة القوافل"[1].

ولقد ارتبط اسم بصرى بالنبي محمد ﷺ قبل البعثة، فلقد روي أنه حين حملت آمنة بنت وهب برسول الله ﷺ رأت كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام، ولما وضعته خرج معه نور أضاءت له قصور الشام

---

* دكتوراه في العلوم التطبيقية.

١- شوقي شعث ودورس ميلر. الحوليات الأثرية السورية، عام (١٩٨٦.١٩٨٧) ص١٣٢ وص١٣٦. وأحمد ارحيم هبو. تاريخ العرب قبل الإسلام ص١٩٤. وجواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ٦٢/٣. وصلاح الدين المنجد. مجلة الأديب. أيلول ١٩٤٦.

٢- ابن كثير. البداية والنهاية. ٢٤٥/٢، ٢٤٦.

وأسواقها، حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى[٢]. وهذا يدل على المكانة الكبيرة لبصرى في نفوس العرب قبل الإسلام. وكانت بصرى أول مدينة وصلها الرسول (ص) متاجراً مع عمه أبي طالب، وفيها بشره بحيرا الراهب بالنبوة، كما بشره بالنبوة راهب آخر في بصرى عندما قدمها في تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة. وكانت بصرى أول مدينة فتحت في الشام عام ١٣ هـ في عهد أبي بكر الصديق، فتحها خالد بن الوليد بعد أن صالح أهلها وأمنهم على دمائهم وأموالهم وأولادهم، على أن يؤدوا الجزية[١].

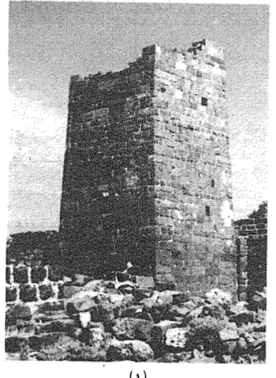
وبهذه الفترة من تاريخ النبوة يرتبط اسم مسجد مبرك الناقة في مدينة بصرى، الذي سنتحدث عنه في الفقرات التالية، كما سنتحدث عن مقام الخضر. فمبرك الناقة من المزارات التي يقصدها السياح من خارج بصرى، أما مقام الخضر فيقصده أهل بصرى.

مبنى مبرك الناقة:

يعد مبنى مبرك الناقة من المباني المشهورة والمباركة في مدينة بصرى، كما ذكرنا أعلاه، يقصده السياح من البلدان الإسلامية ومن المدن السورية الأخرى.

ولقد التقيت بسياح (عائلات وأفراداً) من عدة مدن سورية أتوا إلى بصرى لزيارة مبرك الناقة والجامع العمري، إذ يستأجرون عربة تجرها الخيل (حنتور) لتنقلهم بين الأماكن التي يرغبون بزيارتها، ويقف الحنتور أمام المبنى إلى أن ينتهي السائح من الزيارة، ثم ينقله إلى مكانٍ آخر.

يقع هذا المبنى في الزاوية الشمالية الشرقية من مدينة بصرى، ملاصقاً لسورها النبطي، ويتألف من ٣ أقسام: القسم الغربي (مبرك الناقة)، والقسم الأوسط (المسجد)، والقسم الشرقي (المدرسة) (الصورة ١):



(١)

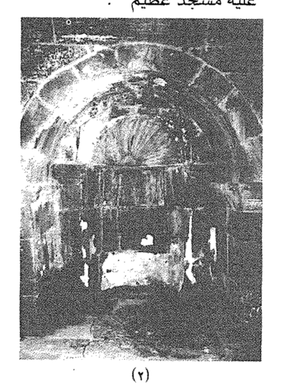
١- البلاذري ـ فتوح البلدان ص١٢٠.

١. القسم الغربي (مبرك الناقة):

يعتقد أنه أقدم أقسام المبنى، وأنه بني في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، ولكن لا يعرف على وجه التحديد تاريخ بنائه. ولا استعمال له حالياً، وهو أحد المعالم السياحية التي يزورها السياح المسلمون للتبرك به.

يتألف هذا القسم من قبلية مسقفة بألواح البازلت، كمعظم مباني بصرى، وفي جدارها الجنوبي محراب طاسته محززة تلتقي الحزوز بنهاية مثلثية معقوفة، كمعظم محاريب بصرى. يتقدم المحراب إيوان صغير في أرضيته حجرة بازلتية فيها أماكن مقعرة (حفر صغيرة) (الصورة ٢)، وهنالك روايتان لتفسير وجود هذه الحفر:

آ- يقال إنها آثار ركب الناقة التي كان يركبها رسول الله ﷺ عندما زار بصرى في تجارته، يقول ابن كثير: "وبها مبرك الناقة التي يقال أن ناقة رسول الله ﷺ بركت عليه فأثر ذلك فيها، فيما يذكر. ثم نقل وبني عليه مسجد مشهور اليوم"[(١)]، ويعلق ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار بقوله: "أما قدوم النبي ﷺ بصرى فلاشك فيه، وأما أن ناقته بركت به في هذا الموضع، فلا نقطع به، ولكن الظاهر أنه هو"[(٢)]. ويقول ابن بطوطة: "وإلى بصرى وصل رسول الله ﷺ، قبل البعثة، وبها مبرك ناقته، قد بني عليه مسجد عظيم"[(٣)].



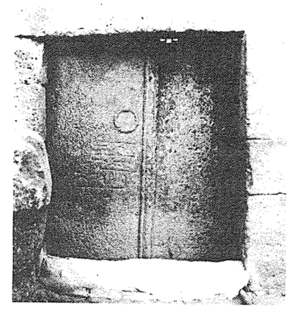
(٢)

ب- ويقال أيضاً أنها آثار ركب الناقة التي كانت "تحمل أول نسخة من القرآن الكريم أرسلها الخليفة عثمان بن عفان إلى الأقطار الإسلامية"[(٤)]. يقول ابن

١- البداية والنهاية ٢/٣٠٠.
٢- موقع الوراق ص٦٨.
٣- الرحلة ١/١٢٨ (سنة ٧٢٦).
٤- فايز الحمصي. من روائع العمارة الإسلامية ص٤٥.

فضل الله العمري: "وفي هذا الموضع مصحف شريف عثماني وعليه أثر الدم"[(١)].

ثم نقل هذا المصحف إلى دمشق بأمر من الوزير ناصيف باشا عام ١١٢٥ هـ، ووضعه في مقصورة الجامع الأموي، ورتب له خادماً[(٢)].



(٣)

وإن كان أثر الدم موجوداً فعلاً على المصحف الذي كان محفوظاً عند مبرك الناقة، فهذا يعني أنه المصحف الذي كان يقرأ في الخليفة عثمان بن عفان عندما قتل، وليس أول نسخة من القرآن أرسلت إلى بلاد الشام، لأن أول نسخة من القرآن حفظت في الجامع الأموي بدمشق مركز الولاية.

شمالي القبلية صحن مكشوف ومفتوح على صحن القسم الثاني بقوس مدبب، وله باب شمالي بازلتي (الصورة ٣).

٢. القسم الأوسط (المسجد):

لا يعرف بدقة تاريخ بناء هذا القسم أيضاً، ولربما بني بعد القسم الأول. ولكن. حسبما أعلم. لا يوجد نص كتابي يثبت ذلك، ويتوقع سليمان مقداد أن يكون المسجد قد جدد في العصر السلجوقي، فلقد ذكر أنه عثر على كتابة بجانب محراب القسم الشرقي (يقصد المسجد) تدل على أن هذا القسم أعيد ترميمه في القرن الخامس الهجري، وقد استدل على ذلك من أسلوب كتابتها[(٣)]، ولا يوجد تاريخ مكتوب. ويعتقد فايز الحمصي أن كمشتكين بناه ليكون جامعاً، ويتابع: "من المرجح أن بناءه قد تم قبل بناء المدرسة"[(٤)].

يتألف من غرفة تستخدم حالياً مسجداً، وهي مشابهة لغرفة المبرك، يتشكل سقفها من ألواح بازلت (الصورة ٤)، كما رأينا في القسم الأول، وفي جدارها الجنوبي محراب قوسه نصف دائري

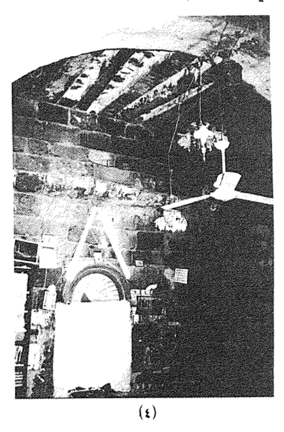
١- مسالك الأبصار. الوراق ص٦٨.

٢- ابن كنان. الحوادث اليومية.

٣- سليمان مقداد. آثار محافظة درعا ص٢٣.

٤- فايز الحمصي ص٤٥.

يستند على عمودين محلزنين، وطاسته محززة كطاسة محراب القسم الأول (الصورة ٤). وشمالي هذا القسم صحن مكشوف، في جداره الشرقي باب صغير يؤدي إلى القسم الثالث (مدرسة كمشتكين).



(٤)

٣. القسم الشرقي (المدرسة):

بني هذا القسم عام ٥٣٠، كما هو محفور على لوح من المرمر الأبيض يغلق نافذة فوق مدخل المدرسة، وقد تضمن ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة من خالص ماله الأمير الأسفهسلار الأجل الكبير المخلص أتابك عز الدين ربيع الإسلام أمين الدولة عضد سيف الأمة شجاع الملوك تاج الأمراء شرف الخواص ظهير المجاهدين فخر الجيوش ذو العزيمتين أبو منصور الأتابكي معين أمير المؤمنين وفقه الله وأسعده وقفاً على الفقهاء والمتفقهة الذين يلازمون درس العلم وتلاوة كتاب الله تعالى على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ابتغاء ثواب الله ورضوانه وغفرانه وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاثين وخمسمئة للهجرة"[١].

وبهذا تعتبر مدرسة كمشتكين أقدم مدرسة إسلامية ما زالت قائمة في سورية ولم تندثر حتى الآن.

رممت هذه المدرسة على يد نائب ملك مصر سعيد باشا (١٢٧٠ - ١٢٨٠)، إذ ضم هذا المبنى جثمان محمد باشا ابن الخديوي عباس الأول (١٢٦٤ - ١٢٧٠) الذي توفي أثناء رحلة دراسة عند عرب زوالة في منطقة مجاورة لمدينة بصرى. ثم نقلت رفاته إلى مصر. وهذا نص الكتابة التي كانت على شاهدة قبر ابن عباس باشا، ونشرها وستزن وبرينوف وراي، ولا تزال هذه الشاهدة مفقودة منذ ذلك الحين[١]:

١- سليمان مقداد ص٣٢.

أمسيتُ ضيف الله في دار الهنا
وعلى المضيف كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن نازلٍ في سوحهم
كيف النزيل بساحة الرحمن

ليس للمبنى -حالياً- أي استعمال، وهو معلم أثري يزوره السياح المسلمون، عندما يزورون مبرك الناقة.

يضم المبنى قبلية في الجنوب، قوس محرابها عثماني (بأربعة مراكز)، حوله بقايا زخارف جصية. على جانبي القبلية غرفتان صغيرتان، وتفتح القبلية على الصحن الذي يقع شماليها بثلاثة أبواب أوسطها أكبرها، وفوق نجفة كل باب نافذة كبيرة قوسها مدبب.

الصحن شمالي القبلية، يسقف بقبة، وعلى كلٍ من جانبيه (في الشرق والغرب) إيوان قوسه مدبب ويصعد إليه بدرجتين. شمالي الصحن ثلاثة أبواب مماثلة تماماً لأبواب القبلية، تؤدي إلى ممر، شرقيه باب إلى الخارج، وغربيه ممر يؤدي إلى ممر ثانٍ في جداره الشمالي الباب الرئيسي للمدرسة.

سقوف القبلية والغرف والإيوانات والممرات من ألواح الحجر البازلتي، وهي الطريقة المستعملة في معظم المباني القديمة في مدينة بصرى. وفوق ألواح البازلت تفرش طبقة من الأتربة المخلوطة بالتبن بسماكة حوالي ٧٠ سم، وتدحل بمداحل خاصة، هي عبارة عن جزء من عمود دائري بازلتي، طوله حوالي ٧٠ سم، في كل من نهايتيه حفرة يدخل بها عصا، يمسك بها الرجل الذي يقوم بعملية الدحل، وتدرج فوق التراب، بعد رشه بالماء.

المئذنة: ترتفع مئذنة المبنى غربي غرفة مبرك الناقة، ملتصقة بواجهتها الغربية، وكأنها مضافة في وقت لاحق. وهي ذات مقطع مربع ومبنية من الحجر البازلتي ككل مآذن بصرى، وأعلاها مهدم حالياً، ولا يمكن الدخول إليها إلا عن طريق السطح (الصورة ٢).

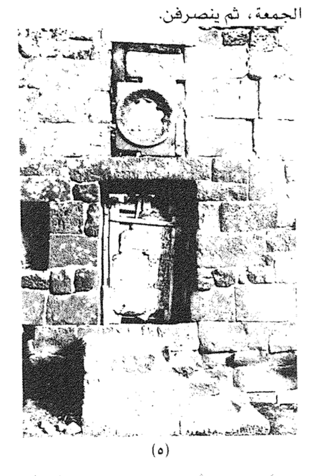
وهكذا نكون قد زرنا معاً أكثر الأماكن الأثرية الإسلامية قداسة في بصرى، وتعرفنا على تاريخ كل قسم فيه، بالإضافة إلى ملامحه المعمارية المميزة.

مقام الخضر:

يعد هذا المكان من الأماكن المباركة عند أهل بصرى، كما ذكرنا، تقصده النساء أيام الجمع وفي المناسبات الدينية والأعياد للزيارة والتبرك، وينذرن له النذور، ويشعلن عنده البخور ويوزعن الحلويات. ولقد رأيت عندما زرته عشرات

١- المرجع نفسه ص٣٢.

من علب الشوكولا الفارغة، وحدثتني المرأة المسنة التي تشرف عليه والتي تسكن الدار التي تعلوه، بأن النساء يوزعن الشوكولا على الأطفال والزائرات، ويجلسن من الصباح حتى المساء كل يوم الجمعة، ثم ينصرفن.



(٥)

وأشير إلى أنه يوجد عدة مقامات للخضر في محافظة درعا، أحدها يبعد عن مدينة درعا بحوالي ١٢ كم، وكان له عيد يسمى "عيد الخضر" في شهر أيار من كل عام، تنذر له الفتيات النذور، ويرددن وهن يقصدن مقامه[1]:

يا خضر جيتك زايرة

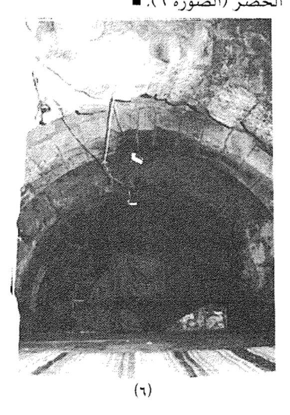
وأنا بأموري حايرة

كل البنات تجوزن

وأنا ظليت بايرة

يقع مقام الخضر إلى الغرب من مسجد الخضر، في طابق سفلي من دار يعتقد سليمان مقداد أنها تعود إلى العصر الروماني. يدخل إلى الدار من باب غربي صغير، يصعد إليه بست درجات، وفوق الباب نافذة دائرية مزخرفة (الصورة ٥).

ننزل إلى المقام بدرج شرقي الدار، وتتألف غرفة المقام من ٥ مجازات يفصل بينها أقواس شبه مدببة، تستند مباشرة إلى الأرض، وتتراوح المسافة بين الأقواس بين ٩٠ و١٠٠ سم. السقف من الأحجار البازلتية، وفي وسط الغرفة ضريح مغطى بقماش أخضر اللون، يقال أنه مقام الخضر (الصورة ٦). ■



(٦)

المثقفون العرب واليابان

مسعود ضاهر*

بدت صورة اليابان عن بعد جميلة جدا كما رسمها بعض مثقفي العرب في النصف الأول من القرن العشرين.

فإبان فترة من تاريخ العرب الحديث مليئة بالهزائم والإحباط، أعجب شعراء العرب وأدباؤهم بنهضة اليابان التي نجحت في بناء جيش قوي، وإقامة دولة عصرية، واحتكارات اقتصادية ومالية ضخمة وإصلاحات سياسية وتربوية وإدارية واجتماعية كبيرة وإدخال العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة على نطاق واسع إلى اليابان.

أفضت تلك الإصلاحات وخلال ربع قرن فقط إلى ظهور دولة "الشمس المشرقة"، وهي دولة قوية لا تخاف الغرب بل يخاف منها. فقد تتالت الانتصارات العسكرية اليابانية طوال الفترة الممتدة ما بين ١٨٩٤ - ١٩٤١. فحقق الجيش الياباني نصره الأول على الجيش الصيني عام ١٨٩٤، ثم هزم الجيش الروسي عام ١٩٠٥.

خرجت اليابان منتصرة في نهاية الحرب العالمية الأولى وباتت أقوى دولة إمبريالية في جنوب وشرق آسيا. وقد احتلت مساحات من الصين وكوريا ودول الجوار الآسيوي وبلغت أقصى مداها ما بين ١٨٣١- ١٩٣٩ وأنزل سلاحها الجوي هزيمة قاسية بالأسطول البحري الأمريكي في بيرل هاربر عام ١٩٤١.

كانت اليابان محط إعجاب شعراء العرب وأدبائهم. فقد نظم حافظ إبراهيم قصيدتين مطولتين بمناسبة الانتصارات الخاطفة التي حققها الجيش الياباني على الجيش الروسي. الأولى بعنوان: "غادة اليابان"، نشرها في ٦ نيسان ١٩٠٤، وفيها تمجيد لفلسفة القوة، وإشادة

* مؤرخ وباحث في التراث.



بشجاعة اليابانيين وبتماسك الشعب الياباني وراء قيادته السياسية.. ومما جاء فيها:

"أنا يابانية لا أنثني
عن مرادي أو أذوق العطبا
هكذا الميكادو قد علّمنا
أن نرى الأوطان أما وأبا."

ثم أعقبها بقصيدة أخرى تحت عنوان "الحرب اليابانية - الروسية"، نشرها في ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٤. وقد نظمها بمناسبة انتصار الجيش الياباني على الجيش الروسي في حرب بدأت في شباط ١٩٠٤ وإنتهت بهزيمة روسيا في أيلول ١٩٠٥ وفيها تذكير بعودة الشرق بقوة إلى التاريخ العالمي وجاء فيها:

"أتى على الشرق حين إذا
ما ذكر الأحياء لا يذكر
ومر بالشرق زمان وما
يمر بالبال ولا يخطر
حتى أعاد (الصفر) أيامه
فانتصف الأسود والأسمر
فرحمة الله على أمة
يروي لها التاريخ ما يؤثر"

على جانب آخر، أصدر الزعيم المصري مصطفى كامل في حزيران ١٩٠٤ كتابا مهما بعنوان:"الشمس المشرقة"، طبع الدراسات العربية عن اليابان بطابعه طوال عقود عدة.

وقد تضمن مقدمة ووصفاً لجزر اليابان وأحداثا منتقاة من تاريخها والانقلاب الحديث في عهد الإمبراطور مايجي أو الميكادو مع تعريف سريع ببعض أعوانه، وتوصيف لولادة الدستور الياباني لعام ١٨٨٩، ومجلس النواب والأحزاب اليابانية الجديدة وتعريف بآليات عمل الإدارة والقضاء والمالية والتربية والتعليم والصحافة والحربية والبحرية.

لكن المقارنة بين اليابان ومصر تثير مرارة الكاتب حين يتذكر كيف أن انطلاقة حركة التحديث في كلا البلدين كانت متشابهة في وجوه كثيرة، فكيف انتهت إلى نتائج معكوسة؟ "ليس بعجب أن يقف المصري موقف الحيرة إذا أراد المقارنة بين أمتين إحداهما حليفة إنكلترا والأخرى مفترسة بين أنيابها.. أنّى للكاتب أن يقارن والمقارنة لا تكون بين الصاعد والنازل والمتقدم والمتأخر والحاكم والمحكوم والسائد والمسود والغالب والمغلوب والشمس المشرقة والشمس التي غربت.." (ص - ٨ -١٠).

ثم ينهي كتابه بالقول:" لا يسع القارئ بعد الوقوف على عظمة هذه الأمة اليابانية إلا أن يقول إن أمة متحدة الكلمة مجتمعة الأمر ملتفة حول عرش إمبراطورها متفقة الشعور نحو وطنها متضامنة متآلفة لنصرة رايتها "الشمسية" مالكة لإرادتها لا تخيب

أبدا في مطالبها ولا تظلم أو تضطهد ولو اجتمعت دول الأرض عليها وأحاطت بها من كل جانب" (ص ٢٢٢) . لقد شكل كتاب مصطفى كامل "الشمس المشرقة" مدرسة تعلم فيها عدد كبير من المثقفين العرب لمحة سريعة عن أسباب نهضة اليابان من جهة وأسباب تخلف العرب من جهة أخرى. وهو يعتبر أفضل ما كتب عن اليابان بعيون عربية طوال ثمانين سنة مضت على صدور طبعته الأولى كان خلالها المرجع العربي شبه الوحيد عن نهضة اليابان.

نماذج من رؤية مثقفين عرب لتجربة التحديث اليابانية:

حتى الربع الأخير من القرن العشرين، لم تكن تجربة التحديث اليابانية محط اهتمام الغالبية الساحقة من الباحثين العرب .وباستثناء ما كتبه بعض الأدباء والصحافيين العرب الذين زاروا اليابان في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين فإن تجربة التحديث الثانية أيضا في اليابان لم تنل أي اهتمام من الباحثين العرب خاصة وأنها قد بنيت في ظل الاحتلال الأمريكي وهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على قرار اليابان وتحويلها إلى " عملاق اقتصادي وقزم سياسي وعسكري". مؤخرا ، صدر عدد كبير من الكتب، والمقالات الانطباعية والدراسات الصحفية بالإضافة إلى عدد محدود جدا من الأبحاث الأكاديمية التي نشرها باحثون عرب. فقد زار عدد من الأدباء والشعراء والصحافيين اليابان ونشر انطباعاته الشخصية عنها.

شارل عيساوي يتساءل:"لماذا اليابان ولماذا ليس مصر؟"

كانت مصر في عام ١٨٤٤ تتمتع بفائض زراعي ضخم،وكانت لديها مساحات زراعية كبيرة،وقنوات عدة للري وفائض في إنتاج الحبوب، كما كانت دولتها حضرية ولديها مدن كبيرة. وحتى عام ١٩١٣ كان متوسط دخل الفرد المصري أعلى بقليل من دخل الفرد الياباني،وكان نصيبه من التجارة الخارجية ضعف نصيب الياباني. وكانت شبكة سكك الحديد المصرية أكثر شمولا من اليابان.

"ما هو فريد في اليابان هو العلاقة الطيبة بين الدولة والنشاط الاقتصادي في حين أن الدولة في بلدان الشرق الأوسط ومعظم البلدان النامية قد اندفعت إلى الاستيلاء على القطاع الخاص . وقد عبر منافسو اليابان الذين يشعرون بخيبة الأمل والغيرة عن ذلك التكافل المدهش بمصطلح "شركة اليابان" . ويعزونها إلى "العصبية اليابانية ". فاليابان هي البلد الوحيد خارج أوروبا الذي شهد إقطاعا حقيقيا،وأن الإقطاع الذي وصفه ماركس بوضوح يساهم في الإعداد الجيد جدا

للرأسمالية . والبلد الوحيد الذي يقترب من هذا النموذج في الشرق الأوسط هو لبنان. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يندفع لبنان إلى الرأسمالية مثلما يندفع البط إلى الماء. على أية حال، فقد فات العرب قطار الرأسمالية في القرن التاسع عشر وهو القطار الذي لحق به اليابانيون بنجاح شديد، لكن هناك الكثير من القطارات الأخرى. ويمتلك العرب اليوم فرصا لم يكن اليابانيون ولا غيرهم ليتصورونها أبدا . ما نتمناه هو أن يحسنوا استغلال هذه الفرص وأن يجدوا طريقهم إلى التنمية. وهم إذ يفعلون ذلك، فإننا ننصحهم بأن يتأملوا في التجربة اليابانية وأن يتعظوا من بعض دروسها ".

وأبرز ما جاء فيها أن اليابان في أوائل القرن التاسع عشر، أي قبل فترة طويلة من الانفتاح، كانت قد وصلت إلى درجة عالية من التحديث في كل المجالات باستثناء التقانة. وشدد على أهمية التحديث في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن أبرز العوامل الإيجابية المساعدة في هذا المجال: التجانس الياباني الإثني واللغوي والديني الذي لا مثيل له، والتماسك غير العادي الذي أبداه اليابانيون في السلم والحرب على حد سواء، واستعدادهم للتضحية بالمصالح الفردية في سبيل مصالح الجماعة الأكبر سواء كانت تلك الجماعة الدولة أو المصنع. " أفرزت اليابان طبقة حاكمة قامت في ما بعد بما قد يكون أعظم عمليات التحديث في التاريخ . بل أكثر من ذلك كانت الطبقة الحاكمة على استعداد لتتعلم من الآخرين".

وقد نقل عيساوي عن إدوين هاربر وصفا دقيقا لذهنية تلك الطبقة على الشكل التالي:" في عام ١٨٦٨ ، قاد الأمير إيواكورا تومومي بعثة مذهلة إلى الخارج. وترك كثير من المسؤولين في الحكومة اليابانية وإداراتها مناصبهم بشكل مؤقت.وقاموا بزيارات للولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا في الفترة ما بين ١٨٧١ و١٨٧٣ للاطلاع على التقانة الغربية، وشؤون الحكم والأعمال والمجتمعات هناك.وكانوا يطبقون المعرفة التي يكتسبونها على الاقتصاد الياباني".

عبد الغفار رشاد يحلل "التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية"

تناول الباحث تجربة التحديث في اليابان من زاوية العلاقة بين التقليدية بمعنى القديم الموروث، وبين الحداثة بمعنى الجديد المستحدث من مفاهيم وأفكار ومؤسسات ونماذج للسلوك. وتساءل:"هل أن عملية التحديث تتطلب بالضرورة رفض للمجتمع التقليدي؟". يشير الباحث في مقدمته إلى تجربتي التحديث في اليابان.

فالأولى في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر والثانية في النصف الثاني من القرن العشرين." وفي كلا التجربتين أثبتت اليابان قدرة فائقة على نقل عناصر الحداثة دون أن تفرط في الكثير من عناصرها التقليدية التي تمثل جوهر الخصوصية اليابانية، ودون أن يفقدها النقل والمحاكاة القدرة على الخلق والإبداع. فأمكن لليابان أن تتبنى العديد من الأفكار والمؤسسات الحديثة الوافدة بالصورة التي تكمل وتثري المجتمع، أكثر من كونها تثير استنكاره وتحديه. ومما يضيف إلى أهمية التجربة اليابانية ما أحرزته من تقدم يرقى إلى مستوى المعجزات بحق ليس فقط بدول العالم النامي بل بالمقارنة مع أكثر دول العالم تقدما. وهذا ما يعطي التجربة اليابانية مكانتها وأهميتها، ويمنح الخبرة اليابانية وما شهدته من صياغة لعلاقة بين التقليدية والحداثة ذات جاذبية خاصة" (صفحات ٢٣ - ٢٤) .

وفيق خنسة وصورة "الشخصية اليابانية".

عاش المؤلف سنوات طويلة في اليابان، مارس التدريس في جامعاتها وأقام صداقات مع عدد من الباحثين اليابانيين وأجرى حوارات معهم وقدم مجموعة انطباعات مهمة مستقاة من معايشته اليومية مع اليابانيين وكيفية النظر إلى المجتمع الياباني من الداخل. ونبه إلى أن "معرفة الآخر شرط لازم لمعرفة الذات، لكن دون أن نحول الآخر إلى مثال وقدوة، ودون أن نتحول إلى ظلال وصدى. وبكل أسف، كان هذا ما حدث للفكر العربي منذ بدايات عصر النهضة. فقد غدت أوروبا قدوة في التفكير والسلوك". (ص ٧).

وعند التنبه إلى مخاطر تقديس الآخر تصبح دراسة التجربة اليابانية، في نظره، مفيدة جداً.

"فنحن نجد عندهم الكثير مما نفتقد إليه ونحتاجه لبناء مجتمعنا العربي المعاصر. ففي يابان الشرق الأقصى ظواهر نحن بأمس الحاجة لمعرفتها ومعرفة الطرائق التي اتبعها اليابانيون في معالجتها. إن عندهم طوائف وديانات ومشاكل لكن ذلك كله لا يمس الانتماء إلى الوطن الياباني، ولا يؤثر على الولاء المطلق للأمة. فالتاريخ الياباني يحظى بقداسة لكنه تاريخ خفيف لا يشكل عبئا على الحاضر أو المستقبل.

بل على العكس، إنه يشد أزر اليابانيين للمضي قدما على دروب الازدهار الاقتصادي" (ص ٨-٩).

حفل الكتاب بانطباعات جميلة حول طبيعة اليابان الساحرة، ونماذج من ثقافتها التقليدية، وحوارات مهمة مع شعراء

وباحثين يابانيين. وهو يظهر الجانب الحقيقي للشخصية اليابانية التي تخفي أكثر مما تظهر.على سبيل المثال، يشير المقطع التالي إلى حقيقة موقف الشعب الياباني من الأمريكيين:

"يفترض المواطن العربي أن يكون اليابانيون معبئين بالحقد والعداء لأميركا، ليس بسبب القنبلة الذرية فحسب، بل بسبب الجرائم التي ارتكبت على كل شبر من أرض اليابان، وبسبب الاحتلال الأمريكي لكامل الوطن الياباني. وحتى الآن هناك ١٥٥ قاعدة عسكرية أمريكية على الأراضي اليابانية. لكن الموقف الياباني ليس على هذه الصورة تماما. مع الإشارة إلى أن الياباني لا يفصح عن مشاعره وآرائه، كما أنه يتمتع بقدرة هائلة على التحمل دون أن يستسلم ..."

"وإذا تذكرنا العداوة التقليدية بين اليابان وكل من روسيا التي تحتل جزر الكوريل اليابانية، وكوريا الشمالية التي تهدد اليابان بسلاحها النووي أدركنا لماذا وجد اليابانيون في الولايات المتحدة حماية من أعداء أشد خطرا. كما أنهم يعترفون بأن الولايات المتحدة ساعدت في نهوضهم الاقتصادي ..كل ذلك لا يعني أن اليابانيين قد نسوا جراحهم وما نزل بهم من دمار وإذلال واستعمار، بل إن اليابانيين واقعيون. وهم لا يهتمون بالبلاغة، وإطلاق الشعارات، والتعابير الساخنة، لأنهم أقرب إلى الصمت. لكن الأمر الذي لا جدال فيه أن الياباني متعصب لانتمائه وتاريخه وثقافته .وقد بدأ اليابانيون يثأرون بالفعل من مستعمريهم. فرؤوس الأموال اليابانية تسيطر بقوة على الاقتصاد الأمريكي، كما أن السلع اليابانية تطرد السلع الأمريكية من أغلب أسواق العالم بما فيها الولايات المتحدة نفسها ". (صفحات ١٣٢ - ١٣٣).

علي المحجوبي وهاجس النهضة: "لماذا فشلت في مصر وتونس ونجحت في اليابان؟"

انطلق الباحث من فرضيات مهمة ترى أن النهضة الغربية الشاملة قد تزامنت مع تخلف شمولي في بلدان أخرى ومنها اليابان ومصر وتونس وشكلت هذه الدول الثلاث موضوعا لدراسة مقارنة.

"انطلق التدخل الغربي إلى كل من مصر وتونس واليابان عن طريق الحملات العسكرية، وفرضت معاهدات غير متكافئة على الدول الثلاث كانت لها آثار وخيمة على سيادة كل منها. فكان لابد من الخروج من العزلة والدفاع عن السيادة الوطنية، وبناء جيش قوي ودولة قادرة على مواجه التحديات الأجنبية.

ورغم كل هذا التشابه بين التجارب النهضوية المصرية والتونسية واليابانية في القرن التاسع عشر فإن نتائجها كانت مختلفة. إذ فشل مشروع النهضة الحديثة بمصر وتونس ونجح باليابان".(ص ٧- ٨).

وقد وصف الباحث تجربة التحديث في اليابان على الشكل التالي:

"أصبحت اليابان في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دولة كبرى مستقلة عن القوى الغربية ومهيمنة بدورها على بعض المناطق الآسيوية. وذلك لأنها استطاعت النهوض باقتصادها ومجتمعها وضمان استقلالها وسيادتها. فعلاوة على انعتاقها من الهيمنة الغربية بإلغاء المعاهدات غير المتكافئة التي فرضتها عليها القوى الكبرى في خمسينات القرن التاسع عشر، حققت جيوشها الحديثة في تنظيمها وعتادها انتصارات على الصين عام ١٨٩٤، وعلى روسيا عام ١٩٠٥. فأصبحت اليابان دولة قوية ومهابة تلقب بإنجلترا آسيا" (ص ٨)

ورأى المحجوبي أن نجاح نهضة اليابان يعود أولاً إلى وجود أرضية صالحة للتغيير توفرت قبل عصر النور (مايجي). ولقد نجحت إصلاحات مايجي في توفير الشروط الثلاثة الضرورية للنهوض الاقتصادي وهي: اليد العاملة الماهرة ورأس المال الوطني والسوق الموحدة. فأرست ركائز نهضة صناعية وزراعية، وثقافية وعسكرية قوية حققت شروط النهضة والتغيير والتنمية البشرية المستدامة. واعتمدت في إنجاز مشروعها على الاكتفاء الذاتي أولاً والاستفادة القصوى من طاقاتها البشرية ومواردها الطبيعية وذلك عبر إدارة بيروقراطية ذات كفاءة عالية وتلافي الاستدانة والقروض من الخارج. وقد ساعدها في ذلك غياب الخلافات التاريخية مع الغرب حيث لم تعرف اليابان أي شكل من أشكال الاحتلال الأجنبي".

أخيراً، يشير المحجوبي إلى مسألة يعتبرها أساسية في نجاح تجربة التحديث في اليابان دون غيرها من الدول الثلاث وهي مسألة العامل الديني." فالديانات السائدة باليابان كالشنتوية والكونفوشيوسية والبوذية، لم تكن عقبة أمام التفتح على الغرب والأخذ بأسباب قوته لتحقيق النهضة الشاملة.إذ أنها لا تمثل خلافا للدين الإسلامي نظاما شاملا لحياة البشر في مظاهرها الروحية والمادية أو مشروع مجتمع منزلا ومقدسا. فهي فلسفات أكثر منها ديانات. وهي لا تحول دون الخوض في جميع المسائل ولا تحد من حرية الإنسان وسلطة العقل .ثم إن هذه الديانات لم تكن متناقضة ولا تدفع إلى الخلافات والنزاعات والعداء بين أنصارها وبالتالي إلى تصدع اللحمة بين السكان. بل كانت عكس ذلك منافية للتعصب لدين دون غيره إلى درجة أن الياباني لا يرى تناقضا في الانتساب إلى عدة ديانات والأخذ من كل منها بطرف. لم تكن الديانات اليابانية إذن مكبلة لحرية الفكر والتعبير، وليس هناك تناقض بين تعاليمها وبين الركائز الفكرية والفلسفية للنهضة الغربية الحديثة. فساعدت على

نجاح المشروع النهضوي الياباني ودفعه لتحقيق التقدم والتغيير مع التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، ودعمت اللحمة الوطنية في صفوف اليابانيين ".

هكذا ساهمت الإصلاحات التي عرفتها اليابان في بداية عصر النور في الميادين العسكرية والتربوية والسياسية في نمو الشعور الوطني خالقة بذلك أسباب نجاح المشروع النهضوي."فكان التكوين بالجيش يقوم على غرس حب الأمانة والوفاء للواجب والانضباط والشجاعة الحقيقية والصدق والتضحية في سبيل الإمبراطور والوطن. واعتمد التكوين بالمدرسة، علاوة على التفتح على الحضارة الغربية الحديثة، على غرس التقاليد والقيم اليابانية الأصيلة، وبالتالي على الاعتزاز بالذاتية والوطن. كما أن الإصلاحات السياسية التي قامت على توفير الضمانات القانونية للمواطن وتشريكه في شؤون الوطن، عملت على مصالحته مع الدولة والتفافه حولها لدفع البلاد إلى التقدم والنهضة (ص٢٢٣- ٢٣٠).

رؤوف عباس حامد: مشكلات المجتمع الياباني وقضايا التنوير

بعد آن استعرض آراء بعض المؤرخين اليابانيين في إصلاحات الإمبراطور مايجي، ومنها آن المجتمع الياباني انطوى على آفات أربع: الإمبراطور، والبيروقراطية، والطبقة الطفيلية من ملاك الأراضي، والبورجوازية الاحتكارية، توصل إلى الاستنتاج التالي: "مهما كان الأمر، فقد خلقت استجابة اليابان للضغوط العدوانية الغربية مجتمعا جديدا. لذلك استطاعت اليابان أن تتعامل مع الدول الغربية على قدم المساواة. ولعل من المنطقي أن نتساءل: كيف استطاعت اليابان أن تعيد بناءها القومي في جيل واحد؟ لعل العوامل الجغرافية من موقع ومساحة، كانت خير عون لليابان على انتهاج هذا السبيل . فهي أصغر مساحة من الصين، وتتمتع بسواحل طويلة جعلت الشعب الياباني يرى الخطر الغربي القادم من أعالي البحار رأي العين، ويحس به إحساسا يفوق إحساس الشعب الصيني بالخطر. وبذلك كان من السهل حشد الجماهير اليابانية وراء الحركة السياسية التي دقت ناقوس الخطر.على حين كانت الصين متسعة الأرجاء، لا تتباين فيها طبيعة السطح فحسب بل يتباين فيها السكان: لغاتهم وبنيتهم الاجتماعية والمحاصيل التي ينتجونها. مما خلق عوائق كبيرة في طريق أي محاولة لفرض نظام إداري واقتصادي واحد على النطاق القومي. وهي ظروف تتشابه مع ظروف الصين والدولة العثمانية.. لذلك لم تحاول الصين أن تعيد تنظيم نفسها "كأمة" في مواجهة التحدي الغربي، على حين نجحت اليابان في تحقيق ذلك". (٢١٦ - ٢١٧).

بعض الملاحظات الختامية:

يلاحظ أن الباحثين العرب لم يبذلوا جهودا كبيرة للاستفادة ثقافيا من هذه التجربة الناجحة التي يمكن أن تقدم الكثير من الدروس المفيدة لنهضة عربية ثانية طال انتظارها. لذا بقيت العلاقات الثقافية بين العرب واليابان غير متكافئة في جميع المجالات، وذلك رغم حجم التبادل التجاري الكثيف بينهما. وتخصص عشرات الباحثين اليابانيين بدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية للدول العربية، ويتزايد تواجدهم باستمرار في مراكز الأبحاث اليابانية المنتشرة في بعض الدول العربية، وفي المؤتمرات العلمية العربية أو ذات الصلة بالعرب والإسلام والنفط.

بالمقابل، فان عدد الباحثين العرب الذين أتقنوا اللغة اليابانية ودرسوا النهضة اليابانية، استنادا إلى وثائقها الأصلية، ما زال ضئيلا جدا. كما أن غالبية المثقفين العرب ما زالوا يرددون مقولات نشرها باحثون أمريكيون وأوروبيون وهي غالبا ما كانت تشوه صورة تجربتي التحديث اليابان. فمنها مقولات غير منصفة على الإطلاق ومنحازة سلفا ضد النهضة اليابانية تحاول التقليل من أهميتها كنموذج يحتذى خارج إطار نموذج التحديث الغربي المسيطر عالميا. مع ذلك، فالزيارات التي قام بها مؤخرا باحثون وأدباء وصحافيون عرب إلى اليابان ساهمت في توضيح حقيقة النهضة اليابانية .فبالإضافة إلى الانطباعات والمشاهدات العيانية بدأ مثقفون عرب ينشرون مقالات علمية جادة ومستندة إلى وثائق يابانية.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الغالبية الساحقة من المثقفين العرب تنظر إلى تلك المرحلة من التحديث في اليابان نظرة إعجاب وإكبار. فنظم فيها بعض شعراء العرب قصائد حماسية، وكتبت دراسات مطولة في مدح " بلاد الشمس المشرقة". إلا أن تلك المرحلة من التحديث قادت إلى ولادة إمبريالية يابانية أنزلت خرابا بشريا وماديا هائلا في دول الجوار الإقليمي كالصين وكوريا، وانتهت بسقوط اليابان تحت الاحتلال الأمريكي عام ١٩٤٥. وقد نشر اليابانيون أنفسهم دراسات مطولة في نقد تلك المرحلة واستخراج الدروس والعبر منها. علما أن تجربة التحديث الثانية بعد الحرب العالمية الثانية هي التي أعطت اليابان حضورا عالميا مميزا، وأمنت لشعبها الاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي والتطور العلمي والتكنولوجي العاصف.

ويعود الفضل في النجاح السريع لحركة التحديث اليابانية إلى تضافر عوامل عدة أبرزها: الدور المركزي للدولة العصرية، وجهازها الإداري المنظم بدقة متناهية، وجيشها القوي. وشكل التعليم العصري

الركيزة الأساسية لعملية الإصلاح المستمر والتنمية المستدامة. ولعب القطاع الخاص دورا أساسيا على جميع المستويات وبشكل خاص في المجالين المالي والاقتصادي.

ومن طريق تعزيز ركائز الدولة المركزية العصرية والقوى البشرية التي تم اختيارها على أساس معيار الكفاءة الشخصية بالدرجة الأولى والإخلاص للعمل، لعب الجهاز الإداري الكفء دورا مهما في إنجاح الإصلاحات. وباتت البيروقراطية تتمتع بقدرة هائلة على اختبار كل المقولات النظرية والطرق الجديدة المستوحاة من النظم الأخرى وتطويعها لخدمة اليابان. واعتبرت الإدارة اليابانية في القطاعين العام والخاص الركيزة الثالثة لنجاح حركة التحديث المستمرة في اليابان، إلى جانب الجيش العصري والتصنيع السريع الذي أفضى إلى قيام الاحتكارات الاقتصادية أو الزيباتسو. ولعبت مؤسسات الدولة الحديثة الدور الأساسي في نقل المجتمع الياباني بشكل مبرمج من مجتمع زراعي تقليدي إلى مجتمع عصري حديث.

بنيت إصلاحات مايجي على ركائز سليمة رافقتها إيجابيات كثيرة أهمها إعطاء الأفضلية المطلقة في تولي العمل الإداري للكفاءة الفردية وليس للوراثة العائلية أو الدعم السياسي. ونجحت الإدارة الجديدة في تطبيق مركزية صارمة وبيروقراطية صلبة.

لعل الصورة التي قدمها شارل عيساوي عن تجربة التحديث اليابانية هي من أفضل ما قدمه الباحثون العرب في هذا المجال. إذ تبدو تلك التجربة على حقيقتها، كحركة جماعية تضافرت فيها جميع عناصر النجاح خلال فترة زمنية قصيرة. وبما أن تلك العناصر متوفرة على ارض الواقع لدى كثير من دول العالم النامية ومنها دول عربية، فإن بالإمكان الاستفادة فعلا من دروس تجربة التحديث المستمرة.

فقد تحولت اليابان إلى نموذج يحتذى لعدد من النمور الآسيوية التي أقامت تجارب تحديث ناجحة.

لكن قادة تلك النمور استفادوا من تجربة تحديث اليابان دون أن يقلدوها. واستندوا إلى العوامل الإيجابية في تراثهم الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وطوروها، وقدموا نماذج إضافية ناجحة ذات طابع آسيوي، بعيدا عن تقليد أطر نمطية، أوروبية أو أمريكية أو يابانية في التحديث. ورأى عيساوي أن بامكان العرب اللحاق بقطار التحديث في أي وقت يحزمون فيه أمرهم على القيام بتجارب تحديث ناجحة، وبشروط عربية غير مقتبسة من الآخرين، بسرعة أكبر لأن لديهم إمكانيات هائلة لبناء تجارب تحديث ناجحة متى توفرت الإدارة السياسية الضرورية لقيامها . ورأى بعض المثقفين

العرب أن اليابان استفادت من دروس وعبر تجربة التحديث المصرية في عهد محمد على أكثر مما استفاد منها العرب أنفسهم. ومع أن دول النمور الآسيوية شددت على دراسة إيجابيات تجربة التحديث الثانية في اليابان، ما زال الباحثون العرب يتجاهلونها بصورة شبه تامة، ويرفضون الإفادة منها بذريعة أنها من صنع غربي وليست يابانية أصيلة. ■

بعض مصادر الدراسة:

١- إبراهيم، حافظ: ديوان حافظ إبراهيم، منشورات دار العودة، بيروت ١٩٩٦.

٢- خصاونة، سامي (محرر): العلاقات العربية - الآسيوية: نحو مستقبل مشرق. منشورات الجامعة الأردنية، عمان ٢٠٠٣.

٣- خضر، محسن: الظاهرة اليابانية وكيف نراها كعرب؟ مقالة منشورة في مجلة "العربي"، العدد ٤٨٢، كانون الثاني ١٩٩٩، صفحات ١٢٦ - ١٣٠.

٤- خنسة، وفيق: الشخصية اليابانية. دار الحصاد، دمشق ١٩٩٤.

٥- رشاد، عبد الغفار: التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٤.

٦- زكي، رمزي: المحنة الآسيوية: قصة صعود وهبوط دول المعجزات الآسيوية. دار المدى، دمشق ٢٠٠٠.

٧- ضاهر، مسعود: النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٥٢. الكويت، كانون الأول ١٩٩٩. وقد نال جائزة أفضل كتاب عربي في مجال العلوم الإنسانية من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عن العام ٢٠٠٠.

٨- ضاهر، مسعود: النهضة اليابانية المعاصرة والدروس المستفادة عربيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تموز ٢٠٠٢.

٩- عابدين، السيد صدقي (محرر): العلاقات المصرية - اليابانية، مركز الدراسات الآسيوية، القاهرة، ٢٠٠٠.

١٠- عباس، رؤوف: المجتمع الياباني في عصر مايجي. القاهرة، الطبعة الثالثة، دار ميريت ٢٠٠٠.

١١- عباس، رؤوف: التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي. دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠١.

١٢- عبد الفضيل، محمود: العرب والتجربة الآسيوية: الدروس المستفادة. منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٠.

١٣- عطا الله، دعد بو ملهب: اليابان من الشروق إلى السطوع. توزيع مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٤.

١٤- عيساوي، شارل: تأملات في التاريخ العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، ١٩٩١.

تراجع بشكل خاص المقالة المهمة: "لماذا اليابان؟"، صفحات ١٧٧ - ١٩٦.

١٥- القعيد، يوسف: مفاكهة الخلان في رحلة اليابان. دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١.

١٦- كامل، مصطفى: الشمس المشرقة. مطبعة اللواء، القاهرة ١٩٠٤.

١٧- المحجوبي، علي: النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان، مركز النشر الجامعي، تونس ١٩٩٩.

١٨- محمد، مهاتير، وإيشيهارا، شنتارو: صوت آسيا، زعيمان آسيويان يناقشان أمور القرن المقبل، دار الساقي، بيروت ١٩٩٨.

١٩- نوتاهارا، نوبوأكي: "العرب، وجهة نظر يابانية"، منشورات الجمل، ألمانيا، ٢٠٠٣.

٢٠- ياسين، سعد غالب: العرب والإدارة اليابانية: ماذا يمكن أن نتعلم من اليابان؟ مقالة منشورة في مجلة "المستقبل العربي"، العدد ٢٦٥، بيروت، آذار ٢٠٠١، صفحات ٥١ - ٦٥.

٢١- يسين، سيد (محرر): العرب واليابان: حوار عربي - ياباني حول الحضارة والقيم والثقافة في اليابان والوطن العربي وتطلعات إلى المستقبل. منشورات منتدى الفكر العربي - عمان، بالاشتراك مع المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا - طوكيو ١٩٩٢. وهو واحد من ثلاثة حوارات، وقد نشر الكتابان الآخران بالإنكليزية ولم يصدرا بالعربية.



الحافظ إسلام البرشتوي

في سنواته الأخيرة بدمشق (١٩٢٠ - ١٩٢٩)

محمد م. الأرناؤوط *

قبل حوالي عشرين سنة (١٩٨٢) حين كنت أعمل في قسم الاستشراق في بريشتينا، وقعت في يدي نسخة مصورة من مخطوطة "مولد" الحافظ إسلام التي وصلت من دمشق الشام إلى كوسوفا وحفظت هناك في ظروف مثيرة. فقد وصلت هذه النسخة إلى الشيخ عبد الله بيرامي، الذي كان شخصية معروفة في مدينة بودييفو Podujevo خلال العهد اليوغسلافي الملكي، وقد تعرض بيت الشيخ بيرامي في ١٩٥٤ إلى تفتيش من قبل قوات الشرطة الصربية التي أخرجت كتبه إلى ساحة الدار وأحرقتها، بينما حافظت زوجة الشيخ كاملة بيرامي على هذه النسخة لـ "المولد" التي وصلت أخيرا إلى مركز الوثائق في كوسوفا[١].

وقد وقعت هذه النسخة في يدي في الوقت الذي كنت أنجز فيه كتاب "الأدب الألباني في الأبجدية العربية" ولذلك فقد أشرت إلى هذا "المولد" مع المعلومة الوحيدة عن المؤلف (الحافظ إسلام) التي تقول أنه قد هاجر من بريشتينا (عاصمة كوسوفا) بعد الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ واستقر في دمشق حيث أنجز ذلك "المولد" في سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م، وأرسله إلى موطنه الأصلي/كوسوفا[٢].

وبعد صدور هذا الكتاب في ١٩٨٣ ازداد اهتمام الباحثين الألبانيين بالمولد كتقليد اجتماعي/ثقافي، ونشرت عدة دراسات أشارت إلى "مولد" الحافظ إسلام بالاسم دون أية معلومات جديدة عنه كدراسة "المولد في الأدب الألباني بالأبجدية العربية" لنهاد كراسنيتشي التي نشرت في ١٩٩١[٣]، ودراسة فتحي مهدي الملحقة بالطبعة الجديدة لـ "مولد" الحافظ علي كورتشا التي نشرت في ١٩٢٢[٤]، ورسالة الماجستير "المولد في اللغة الألبانية"

---

* عضو جمعية المستشرقين في كوسوفا / عضو مراسل مجمع اللغة العربية بدمشق.

لبختيه غربيشي التي نوقشت في كلية الفيلولوجيا بجامعة بريشتينا في ١٩٩٨[٥]، ودراسة فائق لولي وإسماعيل دزداري "نظرة تاريخية حول إبداع الموالد" التي نشرت في ٢٠٠٢م[٦].

وقد أتيحت لي الفرصة لزيارة عائلة الحافظ إسلام في دمشق في صيف ٢٠٠٢، مما مكنني من العثور على بعض الأوراق المحفوظة بخط يده وعلى بعض المعلومات من ابنه عبد الوهاب (ولد في ١٩٢٨) وحفيده زهير (ولد في ١٩٥٥) التي تكشف عن معلومات جديدة عن أسرة الحافظ إسلام وعن تنقله في الدولة العثمانية، وخاصة عن السنوات الأخيرة التي قضاها في دمشق ١٩٢٠-١٩٢٩. وفي الحقيقة فإن أهم ما في هذه الأوراق شجرة العائلة التي رسمها الحافظ إسلام مع ملاحظات قيمة على الوجه الآخر للشجرة كتبت باللغة العثمانية، والإجازة في الحديث النبوي التي حصل عليها في ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ من العالم المعروف عبد الوهاب الأرزنجاني نزيل دمشق في ذلك الوقت[٧]، بالإضافة إلى "المجموعة" الشعرية التي تضم عدة قصائد مكتوبة باللغة الألبانية بالحروف العربية. وفيما يتعلق بالمعلومات المروية من ابنه عبد الوهاب وحفيده زهير فإن مصدرها الحقيقي هو زوجة الحافظ إسلام (وحيدة أحمدي) التي ولدت في كوسوفا في ١٨٩٢ وهاجرت مع زوجها إلى دمشق، حيث توفيت في ١٩٩٠[٨].

وبالاستناد إلى كل هذا يتضح أن الحافظ إسلام قد ولد في قرية نكوفتس (أو نقوفجه كما يكتبها هو) Nekofc التي تقع في منطقة درنيتسا Drenica بقلب كوسوفا. وهو ينحدر من عائلة عريقة حسب الشجرة التي وضعها خلال حياة عمه سليمان الذي كان قد بلغ الثمانين حين وضع هذه الشجرة في ١٣٢٩هـ/١٩١١م، العام الذي يؤشر بخط إلى وفاة من ترد أسماؤهم في هذه الشجرة حتى ذلك الحين. ويذكر في الملاحظات المدونة على الوجه الآخر للشجرة أن عمه الآخر صادق كان في مصر خلال حرب ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ثم ضاعت أخباره بعد ذلك[٩].

ويبدو أن إسلام بن جلال الدين قد تابع تعليمه في بريشتينا حيث حصل هناك على لقب "الحافظ" الذي يدل على أنه قد حفظ القرآن الكريم. ومع أن الحافظ إسلام لا يذكر شيئا فيما بعد في ملاحظاته عن حياته وعمله في بريشتينا إلا أنه حسب شهادة أحد تلاميذه هناك (الملا أحمد) قد عمل مدرسا في مدرسة بيريناز Pirinaz في بريشتينا حتى ١٩١٢[١٠]، أي حتى اندلاع الحرب البلقانية.

وبسبب الفظائع التي مارستها آنذاك القوات الصربية في كوسوفا وبريشتينا[11]، والتي بقيت تتذكرها وترويها زوجته وحيدة، فقد اضطر الحافظ إسلام إلى الهجرة إلى استنبول مع أمه وزوجته وابنته وابن اخته محرم عاكف. وقد تصادف وصوله إلى استنبول اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي أدت إلى نقص الأغذية وتفشي الأمراض في المنطقة حتى توفيت له ٣ بنات[12].

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى قرر الهجرة إلى دمشق، ولكنه توقف في الطريق في مدينة كلس[13] حيث اقام فيها (٦-٧) شهور. وقد استفاد من هذه الإقامة بالاتصال بـ العالم المشهور في المذاهب الأربعة "محمد بن جلال"، وعمل خلال ذلك الوقت مدرساً في مدرسة خاصة معادلة للرشدية. ومن كلس انتقل إلى حمص، التي تقع في منتصف الطريق ما بين كلس ودمشق، حيث علم فترة في المدرسة الابتدائية بحمص، ولكنه لسبب لا يذكره في ملاحظاته عاد مرة أخرى إلى كلس، حيث عين وكيلاً لمدير مدرسة "شمس المعارف"، وخلال إقامته هناك توفي مفتي كلس وأجري له امتحان ومنح الإجازة "في العلوم الاثني عشر"، إلا أنه تعرض إلى ظلم المجلس الامتحاني الذي شكل في كلس بحجة معارضته لجماعة "الاتحاد والترقي" (التي يسميها "الفرقة السياسية الضالة") التي كانت في الحكم آنذاك، واشتهر هناك بسبب ما تعرض له. وبعد ذلك (كما يبدو بعد الحرب وإبعاد "الاتحاد والترقي" عن الحكم) نجح في الامتحان الذي اجري له في جامع حاجي علي وأصبح إماماً للجامع، كما أصبح المدرس الثاني الأصيل في المدرسة المذكورة. وخلال إقامته في كلس وُلِدَ له الابن الأكبر عبد الغني في ١٩١٨م.

في "الأسبوع الأخير من حكم الشريف فيصل في سوريا" (الذي يوافق ١٧-٢٤ تموز ١٩٢٤) رحل الحافظ إسلام إلى حلب المجاورة. وخلال وجوده في حلب خضعت سوريا للانتداب الفرنسي، فهاجر منها إلى دمشق واستقر فيها حيث عرف هناك باسم الحافظ إسلام البرشتوي (نسبة إلى بريشتينا) أو حافظ إسلام أرناؤد[14]. وخلال السنوات التي عاشها في دمشق (آب ١٩٢٠ - نيسان ١٩٢٩) سافر الحافظ إسلام مرة إلى قبرص "لأجل الزيارة" دون أن يوضح في ملاحظاته عما كان وراء هذه الزيارة.

وكما في كل المدن التي عاش فيها فقد كان الحافظ إسلام حريصاً خلال إقامته في دمشق على تحصيل المزيد من العلم. وكان ممن اتصل بهم آنذاك نزيل دمشق العالم عبد الوهاب الأرزناجي، الذي اخذ

منه إجازة في الحديث في ٥ جمادى الآخر ١٣٤١هـ / ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٢م. وبالإضافة إلى ملازمته للشيخ الأرزناجي فقد كان للحافظ إسلام جلسات علمية مع اثنين من العلماء الأرناؤوط المهاجرين (الشيخ نوح نجاتي والد الشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ سليمان الغاوجي الألباني والد الشيخ وهبي غاوجي) اللذين هاجرا من ألبانيا إلى دمشق في ١٩٢٣ بسبب معارضتهما لسياسة أحمد زوغو الإصلاحية[١٥].

ولكن مشكلة الحافظ إسلام كانت في تأمين لقمة العيش له ولعائلته. فقد نزل أولاً مع عائلته في جامع العفيف بمحلة "المهاجرين"، التي اكتسبت اسمها من المهاجرين الذين كانوا يقصدون دمشق من أنحاء الدولة العثمانية في نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠، ثم انتقل إلى "بيت" في محلة الذهبية المجاورة لمحلة العمارة، التي كان يقصدها المهاجرون الأرناؤوط آنذاك. وفي الواقع أن بيوتها الضيقة، التي كان يشبهها الجيل الأول من المهاجرين بـ "القبور"، كانت تضيق بسكانها الجدد الذين كانوا يبحثون عن أي عمل ليعيشوا في ظروف أفضل.

وكما يعترف الحافظ إسلام في ملاحظاته فقد تعلم من والده جلال الدين مهنة النجارة والبناء، كما تعلم في دمشق مهنة تصليح الساعات (التي كانت "مهنة بعض الشيوخ) واشتغل فترة لدى الشيخ أبو رمزي قرب جامع الأقصاب، إلا أنه يعترف أنه لم يتمكن من هذه المهنة "بشكل جيد". وبسبب هذه الحالة، و"ما لاقاه من مصائب الدهر" حتى اشتعل رأسه شيباً قبل أن يبلغ سن الشيخوخة -كما يقول في ملاحظاته- فقد أخذ المرض يتمكن منه. ويبدو أن هذه الحالة، الحرص على العمل والكسب الشريف، فقد أثرت عليه إذ يكتب لأولاده وأحفاده "أنني لم أترك مالاً لذريتي، ولهذا ينبغي ألا يلومونني لأنني تواجدت في زمن لم أحصل فيه إلا على المال الحلال ولم أقبل المال الحرام".

وفي هذه الحالة ازداد المرض عليه حتى توفي في ٢٥ نيسان ١٩٢٩، ودفن في مقبرة الدحداح المجاورة لمحلة الذهبية. ومما يجدر ذكره هنا أن زوجته قامت ببيع "عدة أكياس" من كتبه للشيخ حمدي بختياري (المهاجر من تيتوفا آنذاك) لكي تشتري بثمنها قطعة أرض في المحلة الجديدة (الديوانية) التي انتقل إليها المهاجرون الأرناؤوط، وتبني (بمساعدة الآخرين) البيت الذي نشأ فيه أولاده (عبد الغني وابراهيم وحقي وعبد الوهاب) والذي لا يزال يعيش فيه الابن الأصغر عبد الوهاب والحفيد زهير.

بالاستناد إلى ملاحظاته يبدو أن

الحافظ إسلام كان محافظاً على ألبانيته. فهو يذكر باعتزاز أهل قريته "نقوفجة" الذين "حافظوا على أوطانهم"، ويعدد محلاتهم الأربعة، كما ويذكر القبائل الألبانية الاثنتي عشرة لينتهي إلى القول بأنه من عشيرة "غاش" المعروفة، ويشدد على أنه كان "غيوراً يضحي من أجل راحة بني جنسه". ولا ينسى الحافظ إسلام أن يوصي في ملاحظاته الألبان من حوله في سوريا بـ "أن أقاربنا الآن يخضعون لحكم الصرب وينبغي ألا ينسوهم وإن لم يتمكنوا من زيارتهم يجب ألا يتأخروا في مراسلتهم"، وينتهي إلى القول "الحمد لله أن الإسلام ديني.. والألبانية جنسي". وحين يتحدث عن اللغات التي يعرفها فإنه يذكر الالبانية والعربية والتركية بالإضافة إلى الفارسية "التي يفهمها".

وفيما يتعلق بنتاجه فمن المؤكد أن ثقافته كانت تساعده على الكتابة بالعربية والألبانية والتركية. ولكن بيع المخطوطات/الكتب التي كانت له بعد وفاته يجعل من الصعب أن نعرف ما الذي كتبه، إذ لم يصل لنا سوى مجموعة شعرية مؤلفة من /٥٣/ صفحة يرد في نهايتها أنه انتهى من تسويدها في ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩٢٤م. ويبدو لنا أن الحافظ إسلام كتب قصائد هذه "المجموعة" خلال سنوات ١٩٢٠- ١٩٢٤ على الرغم من الظروف الصعبة التي كان يعيش فيها قبل أن تسوء صحته ويموت.

ففي ملاحظاته التي خلّفها على شجرة العائلة يذكر الحافظ إسلام أنه في ١٣٤٠هـ /١٩٢١م "ألف قصيدة مؤثرة جداً في حب النبي" بعنوان "وفاة أفضل الموجود بلسان الأرناؤد". ويبدو أنه في ذلك الوقت كتب قصيدة "المولد" التي أرسلها إلى كوسوفا لتنشد هناك (١٦)، ولكنه أضاف بعض القصائد الأخرى إلى هذه "المجموعة" التي انتهى منها ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

وتجدر الإشارة إلى أن "المولد" كتقليد اجتماعي قد أخذ يظهر في المشرق منذ مطلع القرن الثالث عشر، حيث تكتب القصائد التي تتناول حياة النبي محمد ﷺ، والتي كانت تنشد في شهر المولد (ربيع الأول) وسط احتفالات/كرنفالات، ثم أصبحت تنشد خلال السنة في مناسبات اجتماعية مختلفة (الولادة، الخطبة، والزواج، الاحتفال ببناء بيت، الوفاة... إلخ) عند الأتراك والألبان[١٧].

وفيما يتعلق بالمهاجرين الألبان في دمشق يذكر كبار السن أنهم نقلوا المولد معهم من كوسوفا وحافظوا في دمشق على هذا التقليد الذي كان يعتمد على إنشاد "المولد" الذي ألفه طاهر بوبوفا[١٨].

وبعبارة أخرى فإن "المولد" الجديد الذي ألفه الحافظ إسلام، وأرسل إلى كوسوفا، لم يحظ بالانتشار لدى الألبان في دمشق. ويبدو أن وفاة المؤلف ١٩٢٩، في الوقت الذي كان المهاجرون الألبان لا يزالون يأتون إلى دمشق، كان من الأسباب التي جعلت الألبان الجدد (الذين نقلوا معهم تقليد "المولد" من كوسوفا) يحافظون على "المولد" المفضل في موطنهم الأصلي وبالتحديد "مولد" طاهر بوبوفا.

وإذا عدنا من جديد إلى "المجموعة" التي بقيت لنا من قصائد الحافظ إسلام، والتي تشكل بكليتها ما اصطلح على تسميته بـ "المولد"، لوجدنا أنها تبدأ بقصيدة استهلالية بعنوان "مدح المولد" (ص ٢-٣) تتألف من /٣١/ بيتاً من الشعر، ثم قصيدة "المولد" (ص ٤- ١٤) التي تتألف من /١٦٦/ بيتاً من الشعر، وبعدها قصيدة "مناجاة" (ص ١٥) التي تتألف من /١٠/ أبيات، ثم قصيدة "معراج النبي" (ص ١٥ - ٢٥) التي تتألف من /٥١/ بيتاً، وبعدها قصيدة أخرى بعنوان "مناجاة" (ص ٢٥-٢٦) تتألف من /٢٤/ بيتاً، ثم القصيدة التي أشار إليها في ملاحظاته عن "وفاة المصطفى" (ص ٢٧-٣٦) التي تتألف من /١١٩/ بيتاً، وبعدها قصيدة عن "وفاة فاطمة الزهراء" (ص٣٧-٤٤) تتألف من /٥٥/ بيتاً، ثم قصيدة تتناول "معجزات" النبي (ص ٤٥-٤٦)، تتألف من /٦١/ بيتاً، ولدينا في النهاية (ص ٤٩-٥٣) "الدعاء" الذي يتلى بعد إنشاد "المولد".

وفيما يتعلق بالأبجدية العربية التي استخدمها الحافظ إسلام في كتابة ما ألف بالألبانية فتجدر الإشارة إلى أنه كان قد غادر موطنه (١٩١٢) في الوقت الذي كانت لا تزال فيه هذه الأبجدية هي الشائعة في كوسوفا على الأقل على الرغم من أن التجاذب بين المثقفين الألبانيين كان يميل حينئذ لصالح الأبجدية اللاتينية[١٩]. وفي مركز كدمشق كان من الطبيعي أن يستمر الحافظ إسلام بكتابة اللغة الألبانية بالأبجدية العربية، وهو في هذا يختلف عن الجيل الجديد من العلماء الألبان الذين نشأوا في دمشق (ناصر الدين الألباني وعبد القادر الأرناؤوط ووهبي غاوجي وغيرهم) الذين استخدموا فقط اللغة العربية في التأليف. ■

الهوامش:

١- كان مصدر هذه المعلومات الابن د. عاكف بيرامي، مدير مركز الوثائق في كوسوفا آنذاك الذي أهداني حينئذ نسخة مصورة من هذا "المولد" ولذلك لا يسعني إلا أن أشكره مرة أخرى على ذلك.

٢- د. محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت (سلسلة عالم المعرفة)١٩٨٣، ص١٨٣-١٨٤.

٣- Nehat Krasniqi, "Mevludi ne lettersine shipe me alfabet arab", Dituria Islame 30-31, Prishtine 1991, P.27.

٤- Hafiz Ali Korca,, Mevludi , Prishtine, 1992 , P. 34

٥- Bahtije Gerbeshi, Mevuldi ne shqip, punim magjistrature, Universitet i Prishtines/ Fakultet IFilologjise,Prishtine 1998, P.27

Faik Luli- Islamil Dizdari, " Nje veshtrim historik mbi krijimin e mevludeve", 169..Edukatea Islame 66, Prishtine 2002, P

٦- لم نجد في كتب التراجم عن علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري/القرن العشرين (الشطي والفرفور وغيرهما) ما يتوقع المرء عن هذه الشخصية، وكل ما وجدناه في " الأعلام " معطيات عن أويس الأرزنجاني الذي عاش في الفترة ذاتها وألف " منهاج اليقين " (طبع) و " شرح أدب الدنيا والدين " للماوردي الذي فرغ من تأليفه سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩: خير الدين الزركلي، الإعلام. بيروت (دار العلم للملايين ١٩٩٢م، ج٢، ص ٣٢.

٧- حسب البطاقة العائلية رقم ٤٩١٦٩ الصادرة في دمشق بتاريخ ١٩/١٢/١٩٧٤م.

٨- في ذلك الحين كانت مصر تخوض حرباً ضد الحبشة التي توجت بمعركة قرع (٧ آذار ١٨٧٦). للمزيد حول ذلك انظر: الياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩، ج٢ القاهرة (مكتبة مدبولي) ١٩٩٠، ص ١٠٩-١١٥.

وانتهز هذه الفرصة لأشكر الصديق د. فاضل بيات على مساعدته لترجمة هذه الملاحظات من العثمانية إلى العربية.

٩- مصدر هذه المعلومة الباحث صبري بايكورا Sabri Bajgora الذي يعد الآن "مولد" الحافظ إسلام للطبع في بريشتينا.

١٠- كانت الصحافة العربية الصادرة في القاهرة ودمشق وبيروت تتابع باهتمام أخبار المجازر التي كانت ترتكبها القوات الصربية في كوسوفا ضد الألبان المسلمين. وهكذا على سبيل المثال، فقد نشرت " المقتبس مقالاً نقلاً عن جريدة الدايلي كرونيكل يروي فيه مراسل الجريدة من منطقة الحرب أن القوات الصربية قتلت خمسة آلاف ألباني بالقرب من بريشتينا فقط:

المقتبس، القاهرة ١/١٢/١٩١٢ م، وفي الحقيقة أن هذا الرقم (٥ آلاف قتيل في ضواحي بريشتينا فقط) ورد في التقارير الميدانية عن الحرب التي نشرت أيضاً في جريدة "دايلي تلغراف":

Leo Freundich, Albania's Golgothe, Translated from German by S. S. Juka, New York 1991, Reprinted in Prishtina 2001, P.45.

١١- لقاء مع الابن عبد الغني والحفيد زهير في بيتهما بدمشق في ٣/٨/٢٠٠٢ م.

١٢- كلس مدينة تقع على سفح جبل كفيز قرب الحدود التركية السورية. ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم كليزي. بعد فتح السلطان سليم الأول لبلاد الشام في ١٥١٦، أصبحت مركز سنجق / لواء تابع لإيالة حلب وفتحها إبراهيم باشا في ١٨٣١ وبنى فيها ثكنة عسكرية كبيرة، وبعد إنسحاب ابراهيم باشا من بلاد الشام في ١٨٤١ أصبحت مركز سنجق / لواء لولاية حلب. بعد إنسحاب القوات العثمانية منها احتلتها القوات الانجليزية في ١٩١٩ ثم تركتها للقوات الفرنسية حيث دخلت مؤقتاً ضمن حدود سورية الجديدة. وحسب "معاهدة أنقرة" ١٩٢١ دخلت المدينة ذاتها ضمن حدود تركيا بينما بقيت البساتين / الأراضي التابعة لها ضمن حدود سورية. وحسب اتفاقية ١٩٢٦ دخلت هذه البساتين / الأراضي مع بعض القرى ضمن حدود تركيا.

وكلس اليوم مدينة يبلغ عدد سكانها حوالي مئة ألف نسمة وتبعد ١٠ كم عن الحدود التركية السورية على طريق حلب إعزاز:

Maydan Laroussi, Vol. 11, 1 Stanbul 1992, P. 288

١٣- يلاحظ في الإجازة التي أعطاها له الشيخ عبد الوهاب الأرزنجاني يرد أن اسمه "إسلام أفندي البرشتوي" بينما يذكر هو اسمه في نهاية "المولد" الذي ألفه "إسلام الأرناؤد" أو "الأرناؤوط" أطلق آنذاك على من هاجر من الألبان سواء من كوسوفا أو من ألبانيا. للمزيد حول هذا الاسم "الأرناؤوط" انظر دراستنا:

الألبانوين: عدة تسميات لأمة واحدة، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد ٦٣، ج٤، دمشق ١٩٨٨، ص ٦٧٧-٦٨٤.

١٤- للمزيد حول سياسة زوغو المذكورة انظر عرضنا "مصطفى أتاتورك وألبانيا " لكتاب المؤرخ الألباني كوبي كيتشيكو في كتابنا: دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، تونس-١٩٩٥.

١٥- يرى كراسنيشي، الذي نشر دراسته عن "الموالد في الأدب الألباني" في ١٩٩١ أن "مولد" الحافظ إسلام لم يحظ بانتشار واسع في كوسوفا:

Krashiqi, Meludet ne Letersine Shqipe, P.26

١٦- للمزيد حول أصول " المولد " انظر دراستنا " من التاريخ الثقافي للمولد النبوي في المشرق حتى الفتح العثماني " (تحت الطبع).

١٧- من لقاء مع الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (ولد في ١٩٢٩ في قرية فرلا Vrella بكوسوفا وهاجرت أسرته إلى دمشق في ١٩٣١) في بيته بدمشق في ١/٨/٢٠٠٢م.

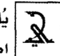
١٨- للمزيد حول هذه التجاذب انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، ص ٥٨-٧٢.

الجانب الاجتماعي من زبدة الحلب

لمؤلفه ابن العديم

٥٨٨ - ٦٦٠ هـ

عبد الرحمن دركزللي*



يُلاحظ القارئ المدقق، عند اطلاعه على كتاب "زبدة الحلب" لابن العديم، أن المؤلف يستخدم أسلوب السرد التاريخي على نطاق واسع، ويقدم الأحداث من غير تعليق عليها أو تفسير لها، جريًا على عادة القدماء من المؤرخين، ولكنه كان في كثير من الأحيان يقطع السرد التاريخي قطعاً مفاجئاً ليسوق خبرًا أو حدثًا اجتماعيًا وهذا أمر يحمد له.

وقد أعجب القدماء بكتابة هيرودوت، وعدّوه -بحق- أبا التاريخ لأنه لم يكتف بتدوين الأحداث بل تجاوز ذلك إلى تسجيل الأساطير ووصف العادات والتقاليد ورواية الأوهام السائدة في المجتمع وهذا ما فعله المؤرخون العرب القدامى، ومنهم صاحبنا ابن العديم.

وقد يتساءل الإنسان عن الغاية التي كانت تكمن وراء إيراد الأخبار الاجتماعية وعن السر الذي جعل ابن العديم في كثير من المواضع يتوقف عن سرد الأحداث التاريخية توقفاً مفاجئاً ليسوق الأحداث الاجتماعية؟!

وأول ما يتبادر إلى الذهن أن ابن العديم كان يشعر في قرارة نفسه بأن السرد التاريخي جافّ مملّ لذلك حاول أن يطرد الملل عن القارئ وينفي عنه السآمة وذلك بإضفاء شيء من الحيوية على النص من خلال تقديم الأحداث الاجتماعية بحيث يجعل القارئ مشدوداً إليه مستمتعاً بقراءة كتابه.

وربما كان ابن العديم يدرك أن السرد التاريخي ضرب من التجريد العقلي يمسخ الواقع ويحوله إلى معلومات جامدة لا روح فيها لذلك فإن رواية الأخبار الاجتماعية تمنح النص شيئاً من نبض الحياة وحرارة الواقع.

---

* دكتوراه في التاريخ - رئيس قسم التاريخ في جامعة حلب سابقاً.

على أن الذي ظهر لنا هو أن ابن العديم بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه كان:

- يستخدم الخبر الاجتماعي كبرهان أو دليل على صحة الأحداث التاريخية فهو عنده بمنزلة الشاهد القوي يدعم به كلامه ويؤيد به روايته.
- وربما كان ابن العديم يحسُ بأن أحداث التاريخ، إنما هي نتائج لما يجري في الواقع الاقتصادي الاجتماعي، وإذا صحّ هذا فهو دليل على وعي عميق وفهم صحيح من المؤلف، وفي مرحلة بدائية من مراحل كتابة التاريخ فكأنه أراد أن يبرز تلك الصلة الوثيقة بين الواقع الاجتماعي والواقع السياسي في تفاعلهما الحيّ.

والحق أن الأخبار الاجتماعية التي أوردها لم تكن عنده للترويح عن القارئ، ولم تكن محطات يستريح عندها الدارس، وإنما كانت موظفة توظيفاً صحيحاً ومستخدمة وفقاً لمنطق سديد وحساب دقيق، يشهد على ذلك أنها موزعة في تضاعيف الكتاب توزيعاً متناسقاً بديعاً بعيداً عن العفوية والاعتباطية أشد البعد.

ولو أن أحداً عمد إلى هذه المادة الاجتماعية وحاول تصنيفها لوجد أنها تدخل تحت واحد من الأصناف التالية:

- هناك أخبار اجتماعية تعكس لنا الواقع السياسي (المثال عليها خبر عرس قطر الندى).
- هناك أخبار اجتماعية تعكس لنا المزاج النفسي لشخصية تاريخية بارزة (مثال ذلك الأخبار المتعلقة بسيف الدولة الحمداني).
- وهناك أخبار اجتماعية تعكس لنا العقلية السائدة للشعب في مرحلة من مراحل التاريخ (مثال ذلك العقلية الغيبية التي كانت تسيطر على الفكر خلال العصر العباسي مثلا).

والآن دعونا ندرس -من خلال الأمثلة- هذه الأصناف من الأخبار..

الصنف الأول: الأخبار الاجتماعية التي تعكس الواقع السياسي:

إن مثال هذا الصنف ذلك الخبر الذي يتحدث عن زفاف عرس قطر الندى ففي سنة ٢٧٩ يموت المعتمد ويتولى (المعتضد) الخلافة، وينتهز (خمارويه) هذه المناسبة فيبايعه، ويخطب له على المنابر ويسير إليه هدية سنية مع (ابن الجصاص)، ويطلب من ابن الجصاص أن يعرض على الخليفة رغبته في تزويج ابنته (قطر الندى) من (علي) ابنه، فيقول المعتضد: "بل أتزوجها أنا".

إن هذا الخبر الذي يبدو بسيطاً ساذجاً، يعكس لنا الظروف السياسية التي كانت سائدة في تلك الحقبة (القرن الثالث الهجري) فالتسلط التركي على الخلافة وقيام الحركات الاستقلالية واعتماد النظام الإقطاعي جعل مركز الخليفة في بغداد ضعيفاً مهلهلاً شكلياً، وهذا يظهر من الوصف الذي أورده ابن العديم لجهاز قطر الندى، فالخليفة يبدو فقيراً بالنسبة إلى خمارويه يقول النص: "وزفت إلى المعتضد.. فقال لأصحابه: أكرموها بشمع العنبر فوجد في خزانة الخليفة أربع شمعات من عنبر في أربعة أتوار فضة".. "فلما كان وقت العشاء جاءت إليه وقُدّامها أربعمئة وصيفة، في يد كل واحدة منهن تورُ ذهب، وفيه شمعة عنبر، فقال المعتضد لأصحابه: أطفئوا شمعنا واسترونا".

ولا بد لنا من الإشارة -ههنا- إلى مسألة هامة أخرى، وهي أن الأمير المستقل عن الخلافة العباسية كان -برغم قوته العسكرية والمالية- حريصاً على كسب رضا الخليفة لأن الخليفة يمثل المسلمين، لذلك كان يتقرب إليه بالهدايا الثمينة ويحاول الارتباط به من خلال المصاهرة والزواج، أما الخليفة العباسي فكان يرتضي الزواج من ابنة الأمير المستقل طمعاً في المال الذي يفتقر إليه، فالزواج إذاً صفقة تجارية ليس إلاّ. وعندما دخل المعتضد ليطلع على جهاز عروسه قطر الندى ويرى خزانتها:

"وجد معها مئة هاون ذهب في جهازها وفيه من المنائر والأباريق، وغير ذلك من الآنية الذهب". فقال: "يا أهل مصر ما أكثر صفركم!..". فقال له بعض القوم: "يا أمير المؤمنين إنما هو ذهب".

وتظهر لنا روح الجشع والانتهازية واضحة جلية لدى المعتضد في الخبر نفسه، يقول ابن العديم:

"وكانت إذا جاءت إليه أكرمها بأن يطرح لها مخدة.. فجاءت إليه يوماً فلم يفعل ما كان يفعله بها، فقالت أعظم الله أجر أمير المؤمنين. قال: فيمن؟!. قالت في عبده خمارويه. فقال لها: أوَ سمعت بموته؟. قالت: لا، ولكني لما رأيتك قد تركت إكرامي، علمت أنه قد مات أبي".

الصنف الثاني: الأخبار الاجتماعية التي تعكس لنا المزاج النفسي لشخصية تاريخية بارزة

كلنا سمع عن سيف الدولة الحمداني وما كان عليه من الشجاعة النادرة والكرم الشديد، والحفاوة البالغة بالعلماء والأدباء ومعظمنا قرأ ما قاله المتنبي فيه من المدائح.

ورأى سيف الدولة مرة في منامه حية تطوق داره. فعظم عليه ذلك، وكان في حمص رجل ضرير من أهل العلم يفسر المنامات، فاستقدمه فدخل عليه فقال له تفسيره أن الروم تحتوي على دارك. فانزعج سيف الدولة وأمر بطرده وإخراجه بعنف.. وشاءت الأقدار أن يستولي الروم على حلب وعلى دار سيف الدولة بعد ذلك.. ويلتقي المفسر الضرير بسيف الدولة فيقول له: ما كان من أمر ذلك المنام الملعّن؟! وهذا طبعاً على سبيل الشماتة.

- وعلى الرغم من عزة سيف الدولة نراه في حضرة أخيه ينقلب إلى شخص في غاية الضعف والمهانة:

"ففي سنة ٣٤٧ يَقدُم (ناصر الدولة) أخو سيف الدولة إلى حلب فلما بلغها تلقاه سيف الدولة على أربعة فراسخ منها، وعندما رآه ترجل له وأنفق عليه وعلى حاشيته وقدم لهم من الثياب الفاخرة والجواهر ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار وأجلسه على السرير وجلس دونه ثم إنه بادر بنفسه لينزع خفيه من رجليه، فمدهما إليه فنزعهما بيده، وصعب على سيف الدولة ذلك، وكان أنه إذا خفض له نفسه فسوف يرفض ناصر الدولة ذلك، لكنه لم يفعل ذلك إظهاراً لمن حضر أنه، وإن ارتفعت حاله، فهو -بالنسبة إليه- كالولد والتبع".

وسيف الدولة لا يتورع عن أن يأكل مالاً ليس من حقه، فهو يعزل القاضي الشريف ابن ماثل ويولي أبا حصين. وكان ظالماً فإذا مات إنسان استولى على تركته وأخذها لسيف الدولة، وقال: "كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك وعلى أبي حصين الدرك".

لذلك لا عجب أن يصل سيف الدولة في الغنى والترف والبذخ والسرف إلى أقصى حد. يشهد على ذلك أن ملك الروم حين استولى على قصر سيف الدولة وجد فيه لسيف الدولة ثلاثمئة وتسعين بدرة دراهم ووجد له ألفاً وأربعمئة بغل كما وجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة وكان قصره بالحلبة آية في الحسن عمل له الأسوار وأجرى من تحته الأنهار وكان نهر قويق يخرج منه ليصب في المكان المعروف بالفيض، وقد بنى حوله اصطبلات لخيوله ومساكن لحاشيته، وهذا على النقيض مما عهدناه عند الخلفاء والأمراء من ولاة المسلمين.

الصنف الثالث: من الأخبار الاجتماعية وهو يعكس العقلية الغيبية التي كانت سائدة لدى الناس

يروي ابن العديم في " زبدة الحلَب" كثيراً من الأخبار التي تدل على تغلغل الفكر الغيبي في حياة الناس.

فالدمستق يمتنع عن فتح حلب لأنه رأى في نومه المسيح، يتوعده ويتهدده، ويقول له:"لا تحاول أخذ هذه المدينة، وفيها ذلك الساجد على الترس" وعندما سأل الدمستق عنه قال له الناس هو أبو نمير الحلبي الزاهد العابد وقبره بقنسرين.

وقبل أن يقتل المنتصر أباه المتوكل ظهر في حلب طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب، فوقع على دلبة وجعل يصيح "يا معشر الناس. الله الله فعل ذلك أربعين مرة ثم طار، ثم جاء في اليوم التالي، فصاح أيضاً أربعين صوتاً وشهد ذلك خمسمئة إنسان. وكان المنتصر والياً على حلب في ذلك الوقت من قبل أبيه.

وسعد الدولة يصاب بالفالج لأنه أقسم يميناً وحنث بها، يقول ابن العديم ثم عاد سعد الدولة إلى حلب، فأصابه الفالج في طريقه، وقيل: أصابه في طريقه قولنج، فدخل حلب، وعولج فبرئ، ثم جامع جارية له (وهي انفراد وكان يتحظاها ويقدمها على سواها من سرياته وهن أربعمئة جارية) فأصابه الفالج واستدعى الطبيب، فلما طلب الطبيب يده ليجس نبضه، ناوله اليسرى. فقال الطبيب "اليمين" فقال سعد الدولة: "ما أبقت اليمين يميناً" يشير إلى غدره ونكثه بقسمه الذي كان قد قدمه لأصحاب بكجور.

وفي عهد معز الدولة وهو ثمال بن صالح بن مرداس، وكان رجلاً فاضلاً، درّت الأرزاق في أيامه على الناس، وأحسن السيرة معهم، وجاد بالعطاء لهم. يقول ابن العديم "وظهر في أيامه ببعلبك رأس يحيى بن زكريا في حجر منقور، فنقل إلى حمص ثم إلى حلب، فوضع بمقام إبراهيم بقلعة حلب سنة ٤٣٥ هـ.

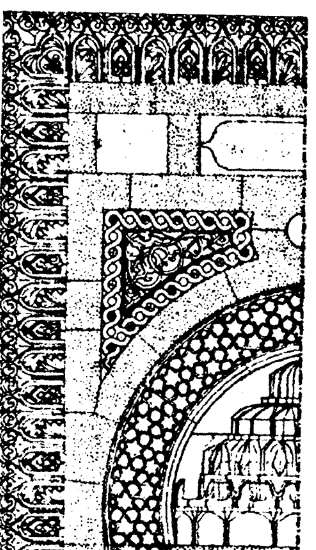
وهكذا فان الأخبار الاجتماعية.. كانت لدى ابن العديم ذات وظيفة، فهي وسيلة للتوضيح والتفسير والتعليل، وهي وسيلة للكشف عن جوانب خفية، وهي أيضاً وسيلة لطرد الملل وبث الحيوية في النصوص التاريخية التي تعتمد على السرد البارد الجاف.■

في العدد القادم

توظيف قلعة حلب سياحيًا

المحاريب في مدينة حلب

لمياء الجاسر*



يعد المحراب من العناصر المعمارية الهامة في الأبنية الدينية الإسلامية فقد وجد في المساجد والجوامع والمدارس والزوايا والتكايا والمشاهد.. وقد أقيم ليدل على اتجاه القبلة وليقوم بدور المضخم لصوت الإمام الذي يقوم مواجها له. والمحراب في المسجد النبوي كما ذكره السمهودي هو المكان الذي كان يقف فيه الرسول ﷺ ويحاذي جدار القبلة.

المحراب الأول في الإسلام

هناك اختلاف كبير حول المحراب الأول في الإسلام. ويرى بعضهم أن مكان القبلة عين بعلامة مميزة على جدار القبلة (في منتصفه غالباً) وكانت حربة تغرز في الأرض بادئ الأمر يقف أمامها الإمام[1].

---

* مهندسة معمارية، ماجستير في علم الآثار.

١- وزيري يحيى العمارة الإسلامية والبيئة. عالم المعرفة ٣٠٤- ص ١٤٢- ١٤٣.

- الصورة لمحراب التكية الوفائية غرفة الضريح. مصغر عن مديرية المتاحف والآثار

وبينما يذكر غالب أن مسجد الرسول لم يضم محراباً وأن المحراب الأول لم يقم أيام الرسول[١]. يرى د. الجمعة أن هناك دلائل كثيرة في كتب الآثار تفيد أن الرسول (عليه السلام) قد بنى محراباً في أول مسجدين في الإسلام (المسجد النبوي ومسجد قباء)[٢].

ويرى فريد الشافعي أن محراب جامع الرسول كان مجوفاً وكان تجويفه ناتجاً عن فرق بين سماكة جدار المحراب المبني بالحجارة وبين باقي الجدار المبني باللبن الأكثر سماكة[٣].

ويرى بريجز أن المحراب وجد في أوائل القرن (٢هـ/ ٨ م) أي بعد تأسيس المسجد الأول بنحو ثمانين إلى تسعين عاماً[٤].

وبينما يعتبر بعض الباحثين أن المحراب مأخوذ من المذبح المسيحي ويرده بعضهم الآخر إلى الكنيس اليهودي... يرى آخرون أنه إنجاز إسلامي بحت من ناحية الشكل المعماري الفريد والمختلف عما سبقه، والمدلول الديني الخاص.

أشكال المحاريب

المحاريب نوعان مسطحة أو مجوفة. والمحاريب المسطحة نادرة ونرى بعض نماذجها في المشرق الإسلامي وكان أغلب وجودها في المدارس حيث يكون عدد المصلين فيها محدوداً ولا تستدعي الحاجة وجود صفوف إضافية. وقد شاعت هذه المحاريب في إيران في العهد السلجوقي، كما ظهر عدد لا بأس به في مصر في ظل الحكم الفاطمي.

وبينما يرى د. الجمعة أن الصورة المبسطة لمحرابي المسجد النبوي ومسجد قباء (السابق ذكرهما) انتقلت إلى العراق والشام ومصر وأقطار المغرب العربي مع بعض التطور بعد ما زادت العناية في أساليب بناء المساجد والجوامع ومن الأمثلة المبكرة للمحاريب المجوفة نصف الدائرية محراب جامع القيروان ويرجع إلى عهد عقبة بن نافع (٥٠هـ/٦٧٠م) يليه محراب قبة الصخرة (٧٢هـ/٦٩١) يليه المحراب الأوسط في الجامع الأموي في دمشق(٨٧هـ/٧٠٦م). يرى الوزيري أنه من المرجح أن يكون أول استعمال للمحاريب المجوفة كان على عهد عمر بن عبد العزيز (عام ٩١هـ / ٧٠٩م)عند تجديد عمارة المسجد النبوي أيام ولايته[٥]. وبذلك ألغى جميع المحاريب السابق ذكرها.

١- غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص ٢٥٢-٣٥٣.

٢- المزيد انظر : الجمعة أحمد قاسم - المحراب - في الأثر والآثار- دار المنهل. ص ٢٦٩.

٣- شافعي فريد العمارة العربية في مصر الإسلامية ص ٥٩٨.

٤- بريجز كريستي ارنولد تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة ص ١١٩.

٥- وزيري المرجع السابق - ص١٤٥.. الجمعة . المرجع السابق

اتخـذت معظـم المحـاريب في مشـرق العالم الإسلامي (ولاسيما إيران والعراق) مسقطاً مستطيلاً متعامد الأضلاع وذلك طـوال العـهد العباسـي الأول (محـراب مسجد قصـر الأخيضـر ومحـراب جـامع سـامراء ومحـراب جـامع أبي دلـف...). وفي منتصـف القـرن (٦هـ/١٢م) ظـهرت المحـاريب ذات التجـاويف المضلعـة ومنـها انتقلـت إلى منـاطق أخـرى مـن العـالم الإسـلامي خاصـة تركيـا والمغـرب. وقـد يكـون تجويـف المحـراب مكونـاً مـن عـدة تجـاويف تصغـر تدريجيـاً نحـو الداخـل. ويتغـير شـكل التجـاويف مـن محـراب إلى آخـر. وبعـض هـذه المحـاريب إنمـا تمثـل محـاريب مزدوجـة إذ يتقدمـها أكـثر مـن قوس واحد وهذا النـوع من المحاريب شاع في المشـرق الإسـلامي والأمثلـة خارجـه قليلة.

وظهر نوع آخر مبتكر من المحاريب وهي المحاريب المنزوية ويستعمل في حال كانت القبلـة في الزاويـة القائمـة عنـد التقـاء جدارين من البناء ويتكون المحراب فيها من قطعتـين مسـطحتين متمـاثلتين تلتقيـان في زاويـة المبـنى وقـد اسـتعمل هـذا النـوع في الأضرحة على الأغلب[1].

أمـا الزخرفـة فـإذا اسـتثنينا المحـاريب الإسلامية الأولى التي كانت وظيفية نرى أن الزخارف قد وجدت في أغلب محاريب الأبنية الهامة وقـد تنوعـت هـذه الزخـارف فمنـها الهندسـية والنباتيـة والتوريـق (الأرابسـك) والكتابيـة. ومنـها النـافر أو الغائر أو المطعم..

اختلفـت زخرفـة المحـاريب مـن بلـد إلى آخـر كمـا اختلفـت المـواد المصنوعـة منـها هـذه المحـاريب وذلـك حسـب المـواد المتوفـرة. وقـد غلـب الآجـر في المحـاريب المجوفـة في المشـرق الإسـلامي كمـا في العراق وإيران بينما كانت السيادة للحجر والرخام في مصـر وسـوريا والمغـرب. وقـد اسـتخدم الخشـب في مصـر في العـهد الفـاطمي حتى أصبحـت مـن أهـم سمـات هـذا العصـر[2]. كمـا اسـتعمل الخشـب كمـا سـنرى لاحقـاً في بعـض محـاريب العـهد الزنكي والأيوبي في مدينة حلب.

أمـا المحـاريب القاشـانية فقـد وجـدت في المشـرق الإسـلامي في حـدود القـرن (٧هـ/١٣م) في العـراق وإيـران ثم كـثر اسـتعمالها في الفـترة العثمانيـة في تركيـا ونـرى نمـاذج لهـا في دمشـق في محـراب المدرسة السليمانية والدرويشية وغيرها..

كمـا اسـتعملت الفسيفسـاء الخزفيـة في زخرفـة المحـاريب في تركيـا وإيـران وبلغـت

١- للمزيد انظر الجمعة المرجع السابق ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

٢- كونل أرنست الفن الإسلامي ص ٥٠.

عصرها الذهبي (في القرنين ٩- ١٠هـ/ ١٥-١٦م) في أصفهان ويزد وقاشان.. بينما استعمل في المغرب نوع خاص من الفسيفساء المصنوع من الجرش. وقد استخدم الجص المنقوش في المغرب والأندلس أيضاً...

وقد أبدع المعماريون في المشرق الإسلامي استخدام **الجص** ونجد خير مثالاً على ذلك في إيران في محراب جامع نايين (القرن ٤هـ/١٠م) وهو من أقدم المساجد التي لا تزال باقية في إيران. إلا أن أبدع الزخارف الجصية ترجع إلى القرن (٨ هـ/١٤م)[1].

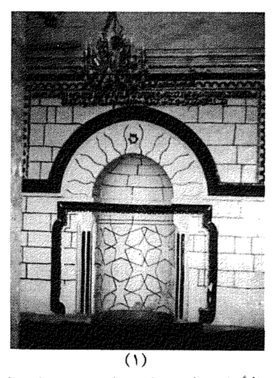
المحاريب المميزة في مدينة حلب

بنيت المحاريب مجوفة نصف دائرية على الأغلب في مدينة حلب وأقدم المحاريب المميزة فيها تعود إلى:

١. الفترة السلجوقية:

١-١ محراب الرواق في جامع الصالحين:

وهو محراب كبير يتقدم حنيته قوس مدبب تضم الفقرتان في الوسط نجمة سداسية. وعلى طرفي تجويف المحراب ناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عمودا صغيرا ملتحما بالجدار له تاج مربع مقرنص بسيط.. (شكل رقم ١)



(١)

في أعلى واجهة المحراب نص بالخط الكوفي منقوش على الحجر يحيط به إطار من الأشكال النصف دائرية. وهو مكون من ثلاثة أسطر يؤرخ المحراب لعام (٥٠٥ هـ/ ١١١٢م). ويذكر صانعه وهو فهد بن سلمان السرماني.

شوه هذا المحراب كالعديد غيره بالدهان.

٢. الفترة الزنكية والأيوبية:

٢-١ المحاريب الخشبية:

اشتهرت حلب منذ القدم بصناعة الخشب وزخرفته بمختلف أنواع الزخارف الإسلامية سواء منها الهندسية أو النباتية أو الكتابية. وقد استعملت في الأبواب والنوافذ والمحاريب والمنابر والتوابيت وقد

١- للمزيد انظر حسن محمد زكي - الفنون الايرانية - ص ٥٤ - ٥٥.

كانت هذه الصناعة في العهد الأتابكي والأيوبي لا يضاهيها أي من البلدان الأخرى. ولدينا من الفترة الزنكية:

٢-١-١ محراب الجامع الأموي الكبير الخشبي:

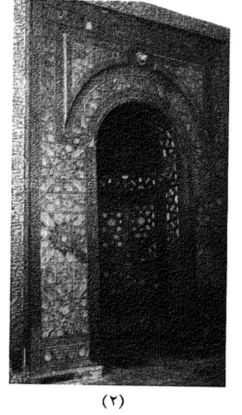
يصف ابن جبير منبر الجامع الأموي الكبير قائلاً لا أرى في بلد من البلاد الإسلامية على شكل وغرابة صنعه وكذلك المحراب الذي يجاوره وهو مرصع بالعاج والأبنوس[١] ويمتد الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال[٢].

٢-١-٢ محراب الجامع الصغير في القلعة:

المنقول إلى فرنسة في عهد الانتداب الفرنسي ونرى صورة له عند هرتزفيلد. وهو يشبه إلى حد ما محراب المدرسة الحلوية **من الفترة الأيوبية:**

٢-١- ٣ محراب المدرسة الحلوية:

يقع في الجدار الجنوبي من الإيوان. وهو منقوش بزخارف نجمية مختلفة (٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٢) رأساً. وقد كتب أعلى المحراب سورة الكرسي بالخط الكوفي المزهر كما كتب حول المثلثين على طرفي القوس نصٌ قرآنيّ بالخط الكوفي الناعم[٣]. بينما كتب ضمن إطار يحيط بالمحراب من جهاته الثلاث نصٌّ بالخط النسخي الأيوبي يؤرخ المحراب لعهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد ولسنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[٤] يعتقد أنه من خط كمال الدين ابن العديم مؤرخ حلب الكبير والذي كان يتولى المدرسة في تلك الفترة. كما كتب في الأعلى: "صنعة أبو الحسين محمد بن الحراني رحمه الله". (شكل رقم٢)



(٢)

١- **الأبنوس:** شجر حراجي شديد الصلابة ثقيل الوزن أسود أمغر (بلون المغرة: الطين الأحمر يصبغ به)، منبته الأصلي الهند وجزر المحيط الهندي لاسيما سرنديب ومنه ماينبت في بلاد النوبة وأنواعه كثيرة، عرف العرب الأبنوس في العهد العباسي الأول واستوردوه من الهند والحبشة. عن الأسدي م١ ص ٩- ١٠.

٢- ابن جبير الرحلة ص ٢٢٧. الطباخ م٢ ص ١٤٠- ١٤١، ٢٧٣.

٣- انظر النص عند جاسر لمياء مدارس حلب ص ٧١٣.

٤- انظر النص عند الغزي م٢ ص١٧١. وبيشوف الجرماني ص ٢٠٠ والطباخ م٤ ص ٤٦١.

٢- ٢ المحاريب الرخامية:

اشتهرت حلب أكثر ما اشتهرت بمحاريبها المزخرفة بالألواح الرخامية الملونة والمتشابكة مكونة أشكالاً هندسية حول قوس المحراب وأقدمها يعود إلى الفترة الأيوبية وأولها

٢- ٢- ١ محراب المدرسة الشاذبختية (سوق الزرب):



(٣)

تجويفه نصف دائري متجاوز ويتناوب فيه اللونان السماقي والأبيض له ناصيتان مجوفتان تضمان عمودين من الرخام الأبيض لهما تاجان مزخرفان بصفين من الأشكال الحلزونية وواجهته تضم أشكالاً وخطوطاً مضفورة ومتشابكة على شكل أنصاف دوائر تضم فيما بينها أشكالاً مثلثية. (شكل رقم ٣)

٢- ٢- ٢ محراب المدرسة السلطانية (أمام القلعة):

مكون من (١٣) حجرة من الرخام الملون مسقطه نصف دائرة متجاوزة له ناصيتان مجوفتان في كل منهما عمود من الرخام الأزرق له تاج كورنثي. ويتقدم المحراب قوس مدبب مزخرف بأنصاف دوائر متشابكة وقد زخرفت واجهته بأشكال هندسية متشابكة.

٢- ٢- ٣ محراب خانكاه الفرافرة:

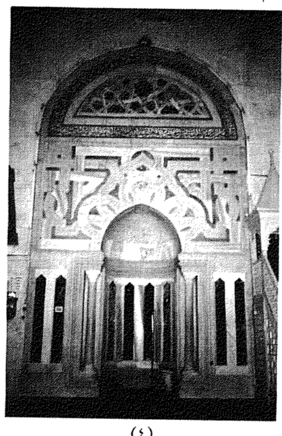
مسقطه الأفقي نصف دائرة متجاوزة له ناصيتان مجوفتان في كل منهما عمود من الرخام الأزرق يعلوه تاج كورنثي. يحده من الأمام قوس مدبب يضم مفتاحه دائرة تضم مسدسات محفورة حول نجمة سداسية ضمنها قطع صغيرة من الفسيفساء الملونة تؤلف أشكالاً نجمية، وهناك أشكال فسيفسائية أيضاً في المثلثين على طرفي القوس.

وحنية المحراب عبارة عن نصف قبة شعاعية يتناوب فيها الرخام الأصفر مع الرخام الأسود المعرق تتطاول إلى الأمام، أما محيط المحراب فقد كسي بألواح من الرخام الأبيض والأخضر تتناوب على محيطه أسفلها أفاريز من الحجر الأصفر تستمر إلى واجهة المحراب وتشكل

قاعدتين للعمودين المذكورين.

وأهم هذه المحاريب هو:

٢- ٢- ٤ محراب مدرسة الفردوس: شكل رقم (٤)



(٤)

يعتبر من أجمل محاريب العالم الإسلامي بدقة صنعه وزخارفه. وهو مصنوع من الرخام الأبيض والأسود والأصفر تجويفه نصف دائرة متجاوزة، وقد استخدم التناوب اللوني في هذه الألواح وفي تجويف المحراب. أما واجهته فتضم أشكالاً هندسية متشابكة وقد استعملت الدوائر بشكل خاص حول قوس المحراب المدبب. كما يتوج أعلى المحراب أشكال نجمية رخامية تملأ فراغ القوس هناك ويحيط بها نصوص قرآنية. وللمحراب ناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عموداً من الرخام الأبيض له تاج مزخرف بأشكال نباتية. تمتد الزخارف على الجدار على طرفَي المحراب. وقد استعملت **الفسيفساء الرخامية** في أجزاء من محرابي خانكاه الفرافرة والكاملية.

٣. الفترة المملوكية:

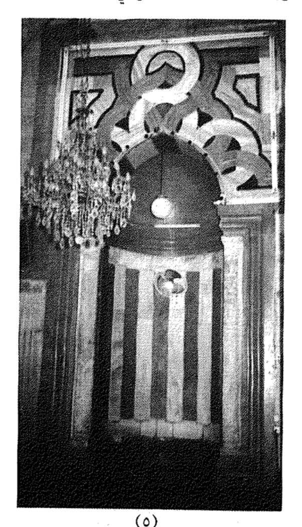
مالت المحاريب في الفترة المملوكية إلى البساطة وكانت من الرخام على طرفيه ناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عموداً في السفاحية. ويعتبر محراب برد بك من المحاريب الجميلة وهو محراب المدرسة الرمضانية من الفترة المملوكية مع إضافات من العهد العثماني.

٣- ١ محرابا جامع الرومي (منكلي بغا - باب قنسرين):

٣-١-١ المحراب الرئيسي: شكل رقم (٥)

يعتبر محراب جامع الرومي امتداداً لمحاريب الفترة الأيوبية يغطي تجويفه حتى مستوى حنيته صفائح من الرخام الأبيض والأصفر، ويتقدمه قوس مدبب زخرف بأنصاف دوائر متشابكة باللونين الأبيض والأصفر أيضا. كما زخرفت كامل الواجهة حول القوس بالألواح الرخامية المتشابكة ضم الطرف الشرقي منها مربعاً نقش فيه نص موازٍ أضلاعه الأربعة بالخط الكوفي المربع. على طرفَي المحراب في الأعلى ظفران مروحيان.

وللمحراب ناصيتان مجوفتان يضم كل منهما عموداً ملتحماً بالجدار وقد زخرف التاج منه بزخارف نباتية. كما زخرف كامل البدن بزخارف نباتية بارزة تشبه إلى حد بعيد الزخارف الموجودة في عمودي المدخل في جامعي الخسروية والعادلية من العهد العثماني ولذلك يمكن القول بأن جذور هذه الطريقة في زخرفة الأعمدة وجدت في العهد المملوكي.



(٥)

٣-١-٢- المحراب المسطح:

هو من الأمثلة النادرة في مدينة حلب. يقع على يسار المحراب الأساسي ويبدو أن وظيفته تزيينة. وهو من الرخام الأبيض المعرق زخرف محيطه بخطوط منكسرة كما نقش عليه شكل لقوس على طرفيه زخارف نباتية. وفي الأعلى لوحة مستطيلة نقش عليها النص القرآني: "كلما دخل عليها زكريا المحراب". وفي الوسط ضمن القوس نقشت مشكاة[١] معلقة بسلسلة. وعلى طرفي القسم السفلي مجموعتان من الزخارف النباتية.

يتخلل جميع النقوش السابقة دهان باللون الأزرق والأخضر والبني والأصفر والبرتقالي زالت أجزاء منها.

٣- ٢ محرابا المدرسة الصاحبية (سويقة علي):

يمتاز محراب القبلية بتوريقات الأرابسك الملونة على طرفي قوس المحراب المنفذة بشكل بارز في الحجارة وكتابة كانت ملونة بالحمرة والخضرة ظلت باقية منذ عهد بناء المكان[٢] إلا أنها طليت بالدهان الأبيض والأسود والبني منذ بضع سنوات. ويشبهه محراب الحجازية.

١- استعملت المشكاة في عدد من المحاريب المسطحة منها محراب الرواق في جامع الدرويشية في دمشق وهي منفذة على القيشاني.

٢- الطباخ م٥ ص ٤٥.

٤. الفترة العثمانية:

تميز العهد العثماني بانتشار استعمال المقرنصات في حنية المحراب وكان أول ظهورها في تلك الفترة في محرابي الرواق في جامع التكية الخسروية و نراه أيضاً في محراب المدرسة الأحمدية وفي محرابي البهرمية والعادلية وفي التكية الوفائية... ويمتاز هذا العهد بظهور المحاريب المضلعة وكان ذلك في محراب **جامع الخسروية** وفي محرابي الرواق أمامه.. كما امتازت المحاريب الحلبية من الفترة العثمانية بوفرة زخارفها. أهم هذه المحاريب:

٤ - ١ محراب الخسروية:

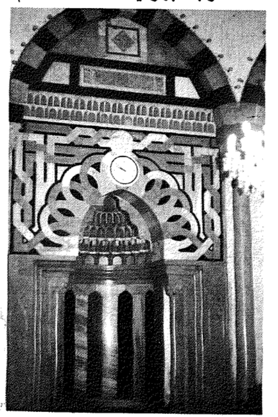
مجوف ومضلع (سبع أضلاع) يعلو فتحته قوس مدبب ذو المراكز الأربعة العثماني مزرر باللونين الأسود والأصفر، ويحيط بها أشكال زخرفيَة مخرمة تشبه الشرافات. وقد استعمل فيه أنواع شتى من الزخارف فقد زين البدن بقطع صغيرة فسيفسائية من الرخام الملون (الأسود والأبيض والأحمر). تتجمع لتشكل شكلاً نجمياً.

وهناك صف من البلاط الأزرق المزين بالكتابة القرآنية الذهبية البديعة النافرة تدور على الأضلاع السبعة للمضلع[1]. كما يضم المحراب زخارف نباتية وأشكال هندسية نجمية. ويعلو المحراب تاج مزخرف بزخارف نباتية تحته نص. وللمحراب ناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عموداً صغيراً من الرخام الأبيض.

٤- ٢ محراب جامع العادلية:

مغطى بألواح من الرخام تصل إلى ارتفاع الحنية والحنية مغطاة بالمقرنصات ويتقدمها قوس مدبب بني بالفقرات المزررة باللونين الأبيض والأسود ، والمثلثان على طرفي القوس مزخرفان بتوريقات الأرابسك يعلوها كورنيش مزخرف بشريط من المقرنصات وزخارف نباتية لشكل يتكرر على طول الكورنيش.

٤ - ٣ محراب البهرمية(٩٩١هـ/ ١٥٨٣م):



(٦)

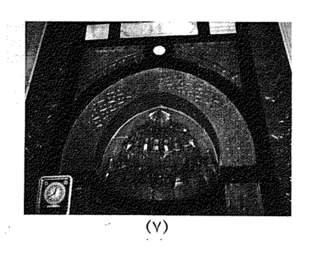
١- انظر النص عند جاسر لمياء المرجع السابق ص ٧٢٤,٢- الطباخ م٥ ص ٤٥.

بني ضمن إيوان في الجهة الجنوبية من القبلية، له حنية مقرنصة وناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عموداً ملتحماً بالجدار له تاج مقرنص، والواجهة مزخرفة بالألواح الرخامية المتشابكة. وقد وجدت الألواح الرخامية المتشابكة منذ الفترة الأيوبية كما أشرنا. وهي في جامع البهرمية حول القوس نصف دائرية ومستطيلة بالألوان الأبيض والأسود والأصفر على طرفيه. وقد بني المحراب ضمن واجهة بارزة قليلاً يتوجها في الأعلى صفان من المقرنصات. (شكل رقم ٦)

وإذا قارنّا بين المحاريب السابقة (الشاذبختية - السلطانية - الفردوس - الرومي - البهرمية) التي استعملت فيها الألواح الرخامية المتشابكة نرى عدد أنصاف الدوائر المحيطة بالقوس بدأ يتناقص في الفردوس، كما نلاحظ التشابه الكبير بين محراب الرومي ومحراب الفردوس في المنطقة المحيطة بالقوس. ثم عاد عدد الدوائر المحيطة بالقوس بالازدياد في البهرمية.

٤- ٤ غرفة الضريح في تكية الشيخ أبو بكر الوفائي:

يعتبر محراب غرفة الضريح في تكية الشيخ أبو بكر من أجمل المحاريب في مدينة حلب. (شكل رقم ٧)



(٧)

يتقدم حنيته قوس مدبب مزخرف بأشكال نجمية سداسية كما زخرفت حنيته بالمقرنصات وزخرف البدن منه والواجهة بزخارف هندسية نجمية. وفي المثلثين على طرفي القوس توريقات نباتية يحيط بها إطار من الأشكال المتضافرة. وللمحراب إطار من اللسينات المزخرفة بزخارف نباتية يتناوب فيها شكلان.. أما تجويف المحراب فيضم (٥) لوحات تضم أشكالاً هندسية يفصل بينها زخارف لها أشكال دائرية تضم أشكالاً هندسية وورود. والقاعدة مزخرفة كما في الإطار. وللمحراب ناصيتان مجوفتان يضم كل منهما عموداً صغيراً زخرف البدن منهما بزخارف هندسية بارزة. كما زخرف التاج بالمقرنصات.

استعرضنا باختصار خصائص بعض من المحاريب المميزة في مدينة حلب. ويمكن زيارة تلك المواقع لاكتشاف جمالها وغناها المعماري عن كثب. ■



ملف العدد

أوغاريت..
عراقة التاريخ

لتتفجر البراكين

وتتخلص الأرض من حممها

لأن مملكة الشر في أسفل الأرض

فليحل السلام أيها البشر

فالأرض وجدت من أجل الحياة

لتتلاقح عليه الأزواج النظيفة

من أجل إنجاب الذرية الطيبة

ولتحرث الأرض

ولتزرع بذوراً أصيلة

وليهطل المطر، لتنبت خيراً وعطاءً

لتشرق الشمس دائماً

وليندحر الظلام

لتولد الحضارة

"نص من أوغاريت"

مهرجان ((ملامح أوغاريتية)) في عامه الخامس

كلمة فرع جمعية العاديات في اللاذقية

صفوان شريتح*

نسترجع اليوم ذكرى اكتشاف عظيم مازالت آثاره وتداعياته تشغل العالم الآن، وسوف تشغله إلى المستقبل البعيد.

إنها الذكرى الخامسة والسبعون لاكتشاف أوغاريت، تلك المملكة العظيمة التي أعطت العالم أول أبجدية.

قد تكون أوغاريت قد انتهت، كما تقول كتب التاريخ، حوالي ١١٨٠ قبل الميلاد، لكن أوغاريت الفكر والثقافة والموسيقى والميثولوجيا ومنبع التاريخ، لا تزال تعطي كل عام شيئاً جديداً، ولا يزال ترابها يحتضن كنوزاً عظيمة.

أود في هذه المناسبة أن أوجه تحية إلى المكتشفين الأوائل وعلى رأسهم كلود شيفر ويروللو. وتحية إكبار واعتزاز إلى جبرائيل سعادة وراوول فيتالي ومن سار معهم على درب أوغاريت.

باسمي وباسم جمعية العاديات في اللاذقية أرحب بكم وأقدم جزيل الشكر للفنانين والموسيقيين ولكل العاملين على المهرجان، وأتمنى لكم أسبوع ملامح أوغاريتية مليء بالمتعة.■

---

* طبيب، رئيس فرع جمعية العاديات في اللاذقية.

أوغاريت والتراث الإنساني

محمد قجة *

أريد أن أتوقف عند نقطة هامة تتعلق بالرؤية التي كانت سائدة لعدة قرون في أوروبا، ومفادها أن الحضارة البشرية لها جذور إغريقية وفروع في عصر النهضة الأوروبية ابتداءً من القرن السادس عشر. وهذه النظرة تتجاهل تماماً الإسهامات الحضارية لشعوب شرق المتوسط وجنوبه في مسيرة الحضارة البشرية والتراث الإنساني، أي تتجاهل الدور المحوري للشعوب والحضارات في حوضي النيل والفرات.

ولسنا الآن في مجال البحث عن خلفية سياسية لتلك الرؤية الضيقة التي تريد تأكيد التفوق الآري كمسوغ تنبني عليه امتيازات سياسية واستعمارية ضد الشعوب الأخرى. بل نتوقف عند الكشوف الهامة الآثارية التي قام بها الأوروبيون أنفسهم، والتي كان لها الأثر الحاسم في تغيير النظرة غير الموضوعية التي كانت سائدة.

يستعرض "مارتن برنال" في كتابه (أثينا السوداء) كثيراً من الآراء والدراسات المتصلة بإنكار أي دور للحضارات المشرقية وأي تأثير لها بالحضارة الإغريقية. ويحاول أصحاب تلك الدراسات إظهار الكنعانيين والفينيقيين في إطار سلبي فاسد لا يتقن التأثير في معنى التطور الحضاري البشري.

ومن هذه الأمثلة رواية "سلامبو" للكاتب (فلوبير) في القرن التاسع عشر، والتي يصور فيها الفينيقيين تصويراً سيئاً كريهاً.. كما يدعي بعض العلماء من ذوي النزعة العنصرية أن الساميين كان ذكاؤهم سطحياً وخيالياً، وهم عاجزون عن الفكر والفعل الإبداعي؟.

* رئيس جمعية العاديات.

حتى "رينان" أبرز مستشرقي تلك المرحلة ، فإنه يقول: إن الجنس السامي جنس غير كامل من خلال بساطته ومن خلال أثر الإقليم الجغرافي الجاف، وهو جنس يفتقر إلى التنويع، وليس لديه أساطير ولا ملاحم ولا علوم ولا فلسفة ولا فنون ولا حياة مدنية. وفي كل شيء لدى الجنس السامي يغيب الحذق وتتوارى المهارة والإحساس.

وفي النطاق نفسه يحمل "ميشيليه" على الفينيقيين ومنهم القرطاجيون فيقول بأنهم شعب صعب حسيّ نهم مغامر دونما بطولة ، ديانته بشعة ومليئة بممارسات مخيفة.

ويتطرف "جوبينو" أكثر فيقول إن اللغة الفينيقية مرتبطة باللغات البربرية. إن سقوط الفينيقيين يعزى إلى الفساد الذي نشروه في كل مكان، وحكمهم من نوع ديموقراطية الغوغاء، وقرطاجة ليس لها تاريخ.

وفي الإطار ذاته نجد حملة "ريناخ" الفرنسي و"هولم" الإنكليزي الذي يرى أن الإغريق وحدهم كانوا نوعاً راقياً ونادراً من البشر، وكذلك "كاربنتر" الأمريكي الذي ينكر أثر اللغة الفينيقية وأبجديتها في الإغريق. وقد أدى قوله إلى مساجلة أكاديمية واسعة بينه وبين كل من "اولمان" و"جنسون" اللذين عارضا رأيه وأكدا الأثر الفينيقي في الإغريق.

ويبلغ التطرف في إنكار الأثر الفينيقي مداه لدى العالم الأمريكي "موهلي" الذي ينكر أي تأثير فينيقي وينكر وجود أي ملامح فينيقية قبل القرن الثامن قبل الميلاد.

وتأتي في سياق تلك الدراسات بحوث "جوردون" و"استور" و"بليغمييه" و"الدكتورة ادواردز". ويلاحظ أن تلك الدراسات بدأت تتجه نحو الموضوعية ، وبخاصة بعد الكشوف الأثرية وتوسع الدراسات الأوغاريتية. وبدأت تلك الدراسات تؤكد الوجود المبكر للفينيقيين في منطقة بحر ايجه، والتركيز على التأثير اللغوي الفينيقي. ومن أبرز تلك الدراسات البحث الذي قدمه "Helm" في جامعة بنسلفانيا ، وقد أدت تلك الدراسة إلى أن يغير "موهلي" موقفه في إطار طوفان الأدلة العلمية على الأثر الفينيقي في الحضارة الإغريقية، وذلك اعتباراً من ١٩٨٤ حينما نشر موهلي دراسة له في هذا المجال. ومن أهم تلك

الدراسات ما قام به "كروس" عام ١٩٧٥ ووصل فيها إلى نتائج أهمها:

١- خطأ المزاعم التي تقول أن الإغريق لم يكن لهم وجود في الغرب قبل القرن ٨ ق.م

٢- إن محاولة نفي تأثير الكتابة الفينيقية في الكتابة الإغريقية قد سقطت، وقد أصبح واضحا أن الفينيقيين وراء التأثير اللغوي والكتابي في حوض المتوسط.

أوغاريت.. هذا الاسم الساحر الذي برز إلى التداول العالمي قبل ٧٥ عاما من اليوم، بعد الكشف المثير الذي قامت به بعثة أثرية فرنسية. ومن الجدير بالذكر إن الأوروبيين الذين حاولوا خلال ثلاثة قرون إنكار أي تأثير للشرق في الحضارة الإغريقية، هم أنفسهم الذين قاموا بالتنقيبات الأثرية في أوغاريت وماري وكركميش وإيبلا.. وقلبت تلك التنقيبات كل المعطيات السابقة التي كانت تتحرك وفق رؤية سياسية مسبقة غير دقيقة.

والآن.. ما الذي قدمته أوغاريت للتراث الإنساني:

١- لا جدوى من إعادة الحديث عن الأبجدية الأوغاريتية التي تقف خلف الأبجديات العالمية اليوم، فهذا أمر مسلم به منذ يوم ١٤ أيار ١٩٢٩ حينما ظهر لوح الأبجدية إلى النور بعد نومه أكثر من ثلاثة آلاف سنة تحت التراب. ومن هذه الأبجدية كانت الأبجديات العالمية: الآرامية وما تفرع عنها، واليونانية القديمة وما تفرع عنها.

٢- أوضحت الدراسات الأوغاريتية قضية حضارية هامة، هي مدى احترام الآخر والقبول بالعيش المشترك في نطاق من السلم والتعامل المرن. وهذا ما تؤكده العلاقات الأوغاريتية مع دول الجوار كالحثيين والمصريين وجزر البحر المتوسط، كما تؤكده البراعة السياسية في توازن العلاقات الخارجية، وخير مثال على ذلك السياسة الخارجية للملك نقماد الثاني وعلاقاته مع دول الجوار.

٣- العيش المشترك داخل أوغاريت ومدن الساحل للسكان الأصليين والجاليات المقيمة أو الطارئة. وقد وضح من اللقى المكتشفة أن أوغاريت كانت مدينة تجارية ذات نشاط واسع، فيها الحثي والحوري والكريتي والقبرصي والمصري، إلى جانب

شعبها الكنعاني الأصل. وأكد ذلك وجود لغات مختلفة في الوثائق المكتشفة، كالمسمارية البابلية والسومرية والحورية والقبرصية والحثية والهيروغليفية المصرية والكريتية، إلى جانب الأوغاريتية لغة أهل البلد.

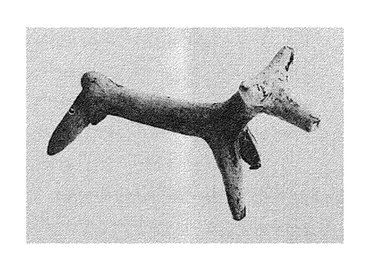
٤- التنوع الكبير في الوثائق، ودقة هذه الوثائق في تنوعها بين اقتصادية وقانونية وإدارية ومهنية ورسمية ودينية وأدبية ومراسلات وفنون، وتفاصيل عن الآلهة والشعر والسحر والأساطير والأوزان والمكاييل والزهور.. الخ.

٥- الملاحم الكبرى التي تعتبر نماذج أدبية وفكرية عالمية، تصور الحياة الدينية والفكرية والأدبية لأوغاريت وللعصر الفينيقي. وقد تركت هذه الملاحم أثرها الحاسم في الفكر العالمي من خلال أسماء آلهة مثل بعل ودجن ويم وعناة وشمش.. الخ، وأسماء أساطير مثل قدموس وكرت.. وما تقدمه تلك الملاحم من وصف للحياة الفينيقية.

٦- تبرز الدراسات الأوغاريتية التي بلغت من عمرها ثلاثة أرباع القرن، معلومات دقيقة حول الأديان واللغات والكتابات وتاريخ شرق المتوسط في الألف الثاني قبل الميلاد، وهذه المعلومات تصحح ما كان شائعاً من معلومات ثبت أنها خاطئة.

يقول الباحث الأثري "بيير روسي" في كتابه "مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب": لقد آن الأوان الذي ينبغي للعالم الشرقي أن يبدأ فيه اكتشاف حقيقة تاريخه وثقافته اللتين لولاهما لغدا الغرب فارغاً.

إن في قول روسي تتجلى الحقيقة التي تؤكد ثبوت ترسيخ الخصوصيات الإنسانية والحضارية السورية العربية في جميع أصقاع المعمورة.■



أوغاريت

جغرافياً.. تاريخياً.. وأثرياً

بسام جاموس*

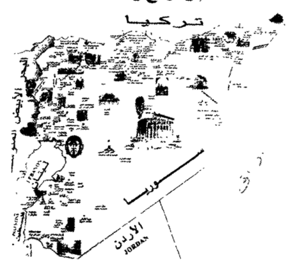
مقدمــة:

1 الســاحل الســوري جغرافيــا وتاريخيــا، كــان ومــا يــزال يشـير اهتمامـا كبـيرا لـدى العلمـاء والمؤرخـين والرحالـة، لأنـه مـن أقـدم المنـاطق الـتي سـكنها الإنسـان القـديم وأبـدع فيـها في المجـالات الاقتصاديـة والفنيـة والأدبيـة، وبخاصـة في مجـال الأبجديـة. فضـلا عـن كتابـات المؤرخـين والرحالـة عـن السـاحل السوري والاكتشافات الأثرية الحديثة التي أضـافت صفحـات جديـدة للتـاريخ وغـيرت الكثـير مـن المسـلمات والمفـاهيم عنـد هؤلاء، وأبرزت الستون سنة الماضية دور سورية بشكل عام والساحل السوري بشكل خاص والذي كان ميدانا لتلاقي الثقافات واحتكاك الشعوب، ويدل ذلك على أهمية موقعه الجغرافي وتـأثره بحضـارات حـوض البحر الأبيض المتوسط.

سـاهمت العلاقـات السياسـية والتجاريـة الدائمة مع ممالك ومدن حوض المتوسـط الشـرقي إلى انتشـار الثقافـات والحـرف، وكانت التجارة الدولية هي في مقدمة هذه العلاقـات، فكـانت سـورية تصـدر زيـت الزيتـون، الأواني الفخاريـة، الأخشـاب وغيرها مقابل استيراد الذهب والمجوهرات والأحجـار الكريمـة والأواني الحجريـة، فكـان السـاحل السـوري ورودس وقـبرص وقرطاجـة وغيرهـا عبـارة عـن محطـات توسـط واسـتراحة للتجـارة والمواصـلات، وكـانت هنـاك أسـس تجاريـة متفـق عليـها دوليا.

رأس الشمرة ـ أوغاريت

الاسم والموقع والاكتشاف

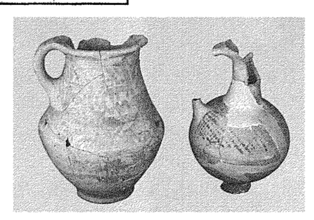


* رئيس فرع جمعية العاديات في اللاذقية.



تقع مدينة أوغاريت على مسافة ١٠ كم شمال اللاذقية، وكانت عبارة عن مرفأ هام واقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واُكتشفت صدفة على يد فلاح يدعى محمود منلا كان يقوم بحراثة أرضه. قاد ذلك إلى اكتشاف قبر يقع بالقرب من خليج يدعى مينة البيضا والذي كان قائماً في القرنيين ١٤ و ١٣ ق.م، وتشكلت على الفور بعثة فرنسية أدارها الفرنسي كلود شيفر، وكانت أول ضربة معول على التل يوم الثلاثاء في ٢ نيسان ١٩٢٩.

ورد اسم "أجرت" في رقيم غير مكتمل فيه العبارة التالية Ingmd Mlkegrt والتي ترجمت على النحو التالي "تقمد ملك أوغاريت". كما ورد اسم أوغاريت في رقيم آخر اكتشف عام ١٩٢٩ وفيه العبارة التالية Bnegrt وتعني موطن أجرت، كما وجدت عبارة Btegrt والتي تعني بيت أجرت التي وردت أيضاً في رسائل تل العمارنة تحت رقم ٨٩ تؤكد لنا أن كلمة أجرت المسمارية الأوغاريتية هي مدينة أوغاريت.



أما معنى أجرت فهو الحقل، وهذا الاسم على ما يبدو هو من الجذر السامي حرث، والحرث هو الحقل المحروث، والمينا البيضا أطلق عليها اسم Leucos Limen. لقد توالت التنقيبات في التل وما زالت مستمرة حتى وقتنا هذا، لقد تركز اهتمام الباحثين على قصر مدينة أوغاريت الذي قدم وثائق رسمية هامة جدا: سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية..



نشرت مئات بل آلاف الدراسات عن هذا الموقع الشهير وخاصة في مجلتي أوغاريتيكا Ugaritica وسيريا Syria و أوغاريت فورشينجن Ugarit Forshungen ومجلة الحوليات العربية السورية AAAS ومجموعة القصر الملكي الأوغاريتي LePalaisRoyal d'Ugarit ، وبعد مرور



حوالي ستين سنة من بداية التنقيب في هذه المدينة بلغت مواسم التنقيب حوالي الواحد والخمسين موسماً.



أثبتت لنا مكتشفات هذه المواسم أن الإنسان أقام في رأس الشمرة-أوغاريت منذ منتصف الألف السابع قبل الميلاد، زرع وبنى واهتم بالصيد وصنع الحاجيات الضرورية لحياته، كما أنه برع في مجال الفنون والثقافة، حتى غدت هذه المدينة مملكة كبيرة تمتد من الجبل الأقرع في الشمال حتى نهر السن في الجنوب وقدمت للعالم تراثاً ثقافياً وحضارياً متنوعاً، أثبتت على قِدَم العلاقات التي كانت تربط الساحل السوري مع الأجزاء الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط، ومع ابتداء الألف الثانية قبل الميلاد أصبح الكنعانيون الشعب الأساسي في المنطقة. يمثل القرنان ١٤-١٣ ق.م العصر الذهبي لمدينة أوغاريت برغم وجود المنافسات والصراعات الدولية عليها، ويعود ذلك إلى عدم قيام وحدة سياسية بين الدول التي قامت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ونذكر منها أوغاريت، جبيل، تل عطشانة (ألالاخ)، فتسبب ذلك في توجيه أنظار الدول المجاورة للاستيلاء عليها (كانت هناك منافسات دولية سببتها أطماع الحثيين والميتانيين فيها ومحاولتهم بسط سيطرتهم ونفوذهم عليهم) فتصدى ملوك مصر لهاتين القوتين في الشمال.

الطبقات الأثرية في أوغاريت

قسم التل إلى خمس طبقات، وقسمت كل طبقة بدورها إلى عدة مستويات، أما الطبقات فهي:

- **الطبقة الخامسة**: تضم العصر الحجري الحديث (النيوليتي ٨٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م)
- **الطبقة الرابعة**: تعود للنصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد (حلف).
- **الطبقة الثالثة**: تبدأ من النصف الثاني من الألف الرابع إلى ٢١٠٠ ق.م (عبيد وبرونز قديم).
- **الطبقة الثانية**: تبدأ من ٢١٠٠-١٦٠٠ ق.م (برونز وسيط).
- **الطبقة الأولى**: تبدأ من ١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م (برونز حديث).

ولقد اكتشفت في منطقة التل ثلاثة قصور هي: القصر الملكي والقصر الشمالي والقصر الصغير.

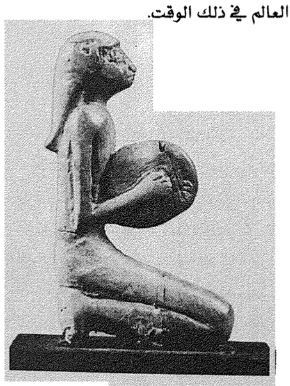
علاقة أوغاريت
مع حضارات شرق البحر الأبيض المتوسط

منذ أقدم الأزمنة المعروفة، كان الساحل السوري مركزاً كبيراً للعلاقات والتجارة الدوليين وساعده على ذلك موقعه الجغرافي الهام، ونستطيع القول بأن العامل الاقتصادي كان له الدور الأساسي في عملية الاتصال بين هذه الحضارات.

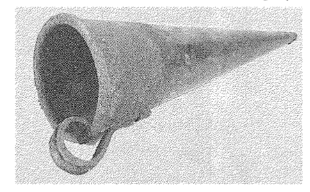


وفي الألف الثاني قبل الميلاد شملت العلاقات الثقافية والتجارية العالم المعروف كله في ذلك الوقت، وخاصة مع مصر والعالم الإيجي وآسيا الصغرى، فأدى ذلك إلى تفاعل الثقافات المختلفة الذي نجم عن احتكاك هذه الشعوب مع بعضها البعض وخاصة في منتصف الألف الثاني (كانت أوغاريت تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قوى رئيسية هي مصر وميتاني والحثيين) فازداد نشاط أوغاريت الاقتصادي كونها كانت تشكل نقطة ارتباط بين مدن وممالك شرق البحر الأبيض المتوسط، وأخذت أهميتها الكبرى في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد واستطاعت أن تفرض ثقافتها عن طريق استغلال موقعها الجغرافي وأهميتها التجارية وغناها الاقتصادي، والدلائل المادية الكثيرة ساعدتنا على معرفة تأثر أوغاريت بحضارات البحر المتوسط ودلت على ذلك المنتجات المصرية والكريتية والقبرصية والميسينية والحثية، والتي جاءت عن طريق الهدايا والزيارات والخبرات المتبادلة والتبادل الاقتصادي.

تعتبر فترة البرونز الحديث بشكل عام وعصر العمارنة بشكل خاص من أهم الفترات لدراسة العلاقات الدولية والتجارية في المشرق، ويعود ذلك إلى كثافة الوثائق من مصر وتونس مروراً بسورية وفلسطين والأناضول وشمال ما بين النهرين. هذه الفترة أعطتنا نصوصاً لطبيعة تشكل هذه العلاقات الدولية وفكرة واضحة عن طبيعة الحياة السياسية في العالم في ذلك الوقت.



في نهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تعرضت مدن الساحل السوري إلى غزوات شعوب البحر، لكن الحياة لم تتوقف، فاستمرت العلاقات والاتصالات بين الممالك. فإن الاتصال والعلاقات بين الشرق والغرب قد استمر كما أوضحته لنا مكتشفات المواقع الساحلية على شاطئ المتوسط، فالعلاقات مع الجزر اليونانية في نهاية عصر البرونز الحديث ومطلع عصر الحديد غير واضحة باستثناء ما كشف عنه في ميناء تل سوكاس وتبّة الحمّام ورأس ابن هاني وتل كزل، وتل عرقا في لبنان.

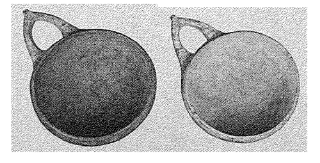


العلاقات مع مصر

أثبتت النتائج الأثرية على وجود صلات قوية بين الساحل السوري ومصر منذ الألف الثالث قبل الميلاد، شملت التبادلات التجارية والدبلوماسية، حيث عقد التجار الصلات الأولى فيما بينهما أي بين مصر وسورية والممالك المجاورة، وثمة اكتشافات غنية بيّنت أن أوغاريت كانت مركزا تجارياً وسياسياً هاماً تدور حوله القوى السياسية آنذاك. فالمستوردات المصرية والإيجية والأناضولية التي اكتشفت في المواقع الأثرية تشهد على تطور هذه العلاقات. إن سورية الساحلية تقوم، بفضل موقعها وامتدادها شرقي البحر المتوسط وتنوع طبيعتها، بدور الوسيط بين الأناضول وسهول أعالي الرافدين في الشمال ووسط وجنوبي بلاد الرافدين وعيلام في الشرق وبين فلسطين ثم مصر في الجنوب.

في عام ١٩٣٩ أشار كلود شيفر في مجلده الأول من أوغاريتيكا إلى العلاقات التي كانت قائمة بين رأس الشمرة والممالك، التي سبق ذكرها، معتمداً على ما قدمته جميعها من دلائل أثرية، ولم تكن هذه العلاقات عادية بل منظمة ولها أسسها. أُكتشفت في أوغاريت آثار مصرية تعود لفترة المملكة الوسطى (٢٠٥٢-١٦١٠ ق.م) أهمها منحوتات لزوجة الفرعون زيرستروس الثاني (١٨٩٧-١٨٧٩) وللملك امنمحت الثالث (١٨٤٠-١٧٩٢ ق.م). وأن أبحاث عالم المصريات فوليفانغ هلك (WHelk.) من جامعة هامبورغ أظهرت أن التماثيل المصرية التي وجدت في سورية وفلسطين والعائدة للملكة المصرية الوسطى، لم تصل إلى هناك إلا في زمن الهكسوس.

دلت مكتشفات رأس ابن هاني (مدينة أوغاريت الجديدة) على عملية النشاط الاقتصادي الهام الذي كان يقوم به القصر الملكي. (في الردهة L.XVIII) عثرنا على منشأة لصب سبائك النحاس أو البرونز المعدة لأغراض التصدير والتجارة، وُجدت مثل هذه السبائك في كريت وصقلية وقبرص واليونان وأوغاريت ومصر، ولعل أهم مجموعة منها وجدت في المركب الغارق في رأس كاليدونيا على الشواطئ التركية، لقد عرّفنا هذا الاكتشاف على نشاط أوغاريت الاقتصادي، وهنا نلاحظ من خلال المكتشفات، امتزاج الحضارات مع بعضها من خلال التبادل الثقافي والتجاري برغم قلة الدلائل التي بين أيدينا (نرى السبائك محمولة على أكتاف السوريين في الهدايا المقدمة لملوك مصر وأمرائها). إن النشاط البشري الهائل الذي عرفه الساحل على مر العصور أعطاه أهمية ثقافية واقتصادية واجتماعية.



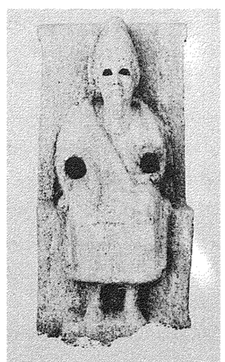
دلت أعمال البحث ونتائج التنقيب الأثري على أن رأس ابن هاني هو وجه جديد متمم للملكة الأوغاريتية، بل هو جزء منها، بل بلدة ذات شأن في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. فكان لموقع الساحل السوري الأثر الكبير على ازدهاره الحضاري في مختلف العصور، وبالتالي على انتقال معالم حضارة الشرق إلى الغرب وجسراً هاما للكثير من الجماعات القادمة من الشمال والجنوب، فلم يترك ملوك أوغاريت خلال كل عهود حكمهم، منذ منتصف القرن الخامس عشر ق.م، تحالفهم التقليدي مع مصر. هذا التحالف الذي كانت تمليه عليهم مصالحهم الاقتصادية على اعتبار أوغاريت كانت قاعدة للتجارة البحرية والبرية في سورية الشمالية، كما تمليه أيضاً مصلحتهم في تأمين الدفاع عن بلادهم فيمكن أن تقع هذه الروابط في عدة مستويات أهمها:

١- النشاطات التي قام بها التجار والحرفيون والجوالون والدبلوماسيون والمهاجرون.

٢- النشاطات السياسية التي سادت عن طريق الزيارات وتقديم الهدايا أو إبرام المعاهدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

٣- النشاطات الفكرية التي تمثلت بالفنون ومدى عملية التأثير والتأثر بين ثقافات الشعوب وعمليتي الكتابة والآداب والتي أشارت إليها النصوص المكتشفة.

كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد عصر التمازج الحضاري بين قوى الشرق والغرب، أما العلاقة الحضارية الثقافية والتجارية مع قبرص والعالم الإيجي، فقد أعطتها لنا المعطيات الأثرية في معظم مواقع الساحل السوري. وقد أشارت الوثائق والرقم المسمارية المكتشفة في أوغاريت على أهمية هذه العلاقات الفنية والفكرية، واستطاع العالم الأثري الفرنسي كلود شيفر، بعد عشرات المواسم التنقيبية الأثرية، أن يكتشف المجالات المختلفة التي تنشطت فيها الاتصالات مع كريت وقبرص وغيرهم، كون مدينة أوغاريت كانت تربط الشرق بالعالم الإيجي، حتى غدت أوغاريت عالم تداخلت فيه الثقافات المصرية والكريتية والقبرصية والقرطاجية والأناضولية.



كان الدور الأول للتجارة في خلق المزيد في توسيع العلاقات بين الدول عن طريق عملية التبادل الحضاري الناتج عن التطور الاقتصادي والاجتماعي خلال الألف الثاني قبل الميلاد. ونستطيع القول بأن صلات الساحل السوري بشكل عام، وأوغاريت بشكل خاص تميزت بالعلاقات المباشرة التي بدأت بقوة منذ بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد والتي أكدتها ضخامة المستوردات المصرية والإيجية والعلاقات غير المباشرة والتي شملت التبادل التجاري الهام والنشاط الاقتصادي بكافة أنواعه.

وما زالت التنقيبات مستمرة في موقع أوغاريت، حيث عثرت البعثة السورية-الفرنسية مؤخراً على مجموعة من الرقم المسمارية في منزل التاجر اورتينو تتحدث عن النشاط الاقتصادي والتجاري لأوغاريت في فترة عصر البرونز الحديث ١٦٠٠-١٢٠٠ قبل الميلاد، وهي قيد الدراسة.■



مبانٍ من أوغاريت

اوليفييه كالو*

منذ عشرين عاماً تقدمت معارفنا عن المدينة والعمارة في أوغاريت تقدمًا ملموسًا، ومن الطبيعي أنه لا مجال للخوض في تفاصيل هذا الموضوع الواسع إنما سنكتفي فقط باختيار بعض الأمثلة محاولين أن نظهر من خلال الآثار التي نراها على تل أوغاريت أنه من الممكن أن نقدم (على الورق على الأقل) تصوراً وإعادة تشكيل، ربما كان أكثر إثارة وإيحاء من الآثار نفسها.

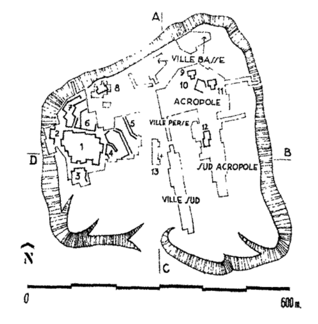
في البداية لا بد أن نشير إلى ثلاث نقاط:

١- إن الدخول في تفاصيل الطريقة التي توصلنا بها وببطء شديد إلى هذه التصورات وإعادة التشكيل يستغرق وقتاً طويلاً وبالتأكيد سيكون ذلك مملاً جداً.

٢- ثم علينا النظر بعين متفهمة إلى الرسوم المتصوّرة والتي يمكن اعتبارها صحيحة في مجملها، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنها غير مؤكدة في كثير من التفاصيل.

٣- وأخيراً، وجميعنا يعلم أن تاريخ أوغاريت يمتد إلى أكثر من ثمانية آلاف عام، لكن المباني التي سنقدمها هنا تعود إلى نهاية العصر المسمى بالبرونز الحديث، أي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

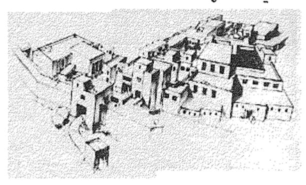
سننتقل الآن إلى أوغاريت وهذا مخطط لها، وسنزور بالتتابع القصر الملكي في الغرب ثم المعابد على الاكروبول من جهة الشرق ثم بضعة منازل في الوسط جنوب المدينة.



* باحث في آثار أوغاريت.

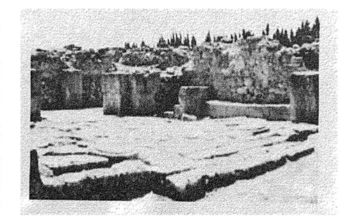


إن ما اعتدنا على تسميته بالقصر الملكي لم يكن إلا مجمعاً أكثر اتساعاً في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مما دعانا إلى تسميته بالمنطقة الملكية والتي كانت تشكل مدينة صغيرة حقيقية ضمن المدينة نفسها.

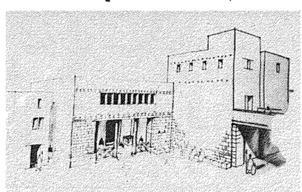


ففي هذه المنطقة كان يمكن للملك أن ينعزل عن الخارج وعن المدينة في حال الخطر أما فيما يخص القصر الملكي، وبعد التحاليل التي قمنا بها للآثار فمن الممكن أن نقترح إعادة تشكيل أكثر حيوية مما تقدم.

ويمكن إعطاء مثل على ذلك من إعادة تشكيل قاعة العرش الذي يظهر في حالته الراهنة كما في الصورة التالية:

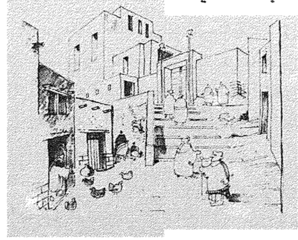


بينما يظهر بعد إعادة تشكيله باستخدام الحاسوب كما يلي:



إن المعابد قليلة العدد في أوغاريت، فنحن لا نعرف إلا خمسة معابد، وبما أنه لم يتم التنقيب عن كامل المدينة فمن المؤكد وجود معابد أخرى، ولكنها لا تضاهي عظمة وضخامة معبدي بعل وداغان الواقعين على الاكروبول، وهما محطمان جداً في يومنا هذا.

إن الأبحاث التي أجريت في السنوات الأخيرة سمحت بتحديد الكثير من معالمهما وبشكل أفضل، ويشكل كل مهما برجاً عالياً من ٢٠ م يتقدمه مدخل أقل ارتفاعاً. ويظهر في الشكل التالي معبد بعل بعد إعادة تشكيله.

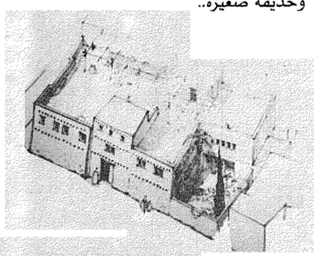


وفي القاعـة المنخفضـة مـن البـرج والمفتوحـة للمؤمنين كـانت توجـد صورة الرب، بينما كان السطح الذي يعلو البرج محجوزاً للملك ولبعض الكهنة المهمين الذين يقدمـون قرابينـهم مواجهـة لجبـل الأقرع الذي كان سكان أوغاريت يعتقدون أنه مسكن الرب. لكن معبدي بعل وداغان اللذين يقعان في أعلى الاكروبول كانا يستخدمان أيضاً كنقاط علاّم تهتدي بها المراكب التي تؤم مرفأ مينة البيضا، فلقد وُجد أمام معبد بعل مراسٍ لمراكب كقربان قدمه البحارة ليشكروا الرب على رعايته لهم وتأمين سلامتهم.

وما عدا القصر والمعابد فكل المباني التي عَرَفتها أوغاريت هي منازل سكنية، فداخل أسوار المدينة وضمن شبكة الطرق التي تشكل تجمعات، يوجد في كل منها من ثلاثة إلى عشرة منازل ويلاحظ في كل مكان كثافة سكانية ولم تترك أية أراض خالية من العمران.

وكان هنالك تنوع كبير من المساكن، فمن مساكن الأغنياء التي تبلغ مساحتها أحياناً ٥٠٠ متر مربع إلى منازل أكثر تواضعاً من ٨٠ إلى ١٠٠ متر مربع، ولا نعرف إلى الآن منازل يمكن أن نصفها بمنازل الفقراء. وكل المنازل سواء كانت غنية أو متواضعة فلها نفس التنظيم تقريباً: طابق أرضي مخصص للعمل والتجارة والتخزين وفي كل منها درج يؤدي إلى الطابق الأول حيث السكن، وكان السطح يستخدم كقاعة للاستقبال ولنشاطات مختلفة.

ويبدو فيما يلي نموذج لمنزل غني وحديقة صغيرة..



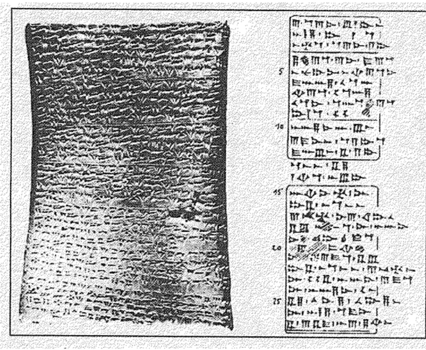
وتحـت أغلب المنازل كان يوجد مدفن يُوارى فيه الأموات، كما تُظهِر:

كان هذا التعريف سريعاً جداً بالنسبة لموضوع واسع كأوغاريت، وآمل أنه بفضل صور إعادة التشكيل التي رافقته يمكن أن يُعطي صورةً مختلفة، ربما أكثر حيوية لعاصمة مملكة سورية غنية في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد.■

رسالة وتعويذة

دراسة إيبيغرافية للوحين من أوغاريت

ملاتيوس جغنون*



مقدمة:

يشكل الإرث الرقمي المدوّن الذي عُثِرَ عليه في مواضع متعددة من مدينة أوغاريت منذ بدايات التنقيب فيها وحتى الربع الأخير من القرن العشرين، الجانب الأكثر أهمية من المكتشفات الأثرية الأوغاريتية، نظراً لتنوعه ولكونه منجماً يكتنز بالمعلومات المتعددة اللغات والمتعددة الأوجه التي أمدّتنا بالكثير من المعارف المتصلة بالجوانب السياسية والحقوقية والتجارية والإدارية والأدبية والموسيقية والميثولوجية والمعتقدات والطقوس الدينية وغيرها للحياة في هذه المدينة العظيمة خصوصاً وفي المنطقة عموماً، فأضاء لنا هذا الإرث المدون الساحة الأوغاريتية وأعاد لها الحياة، في أذهاننا على الأقل، بعد أن طواها النسيان لأكثر من ثلاثة آلاف عام.

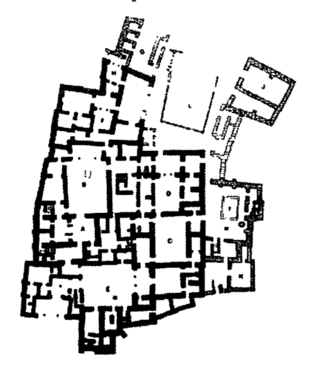
ولا بد من الإشارة إلى أن الرُقم التي اكتشفت في أوغاريت لم تكن جميعها بالأوغاريتية، بل كانت متنوعة تراوحت بين السومرية والأكادية والمصرية والحثية والحورية والقبرصية، الأمر الذي يشهد على مدى اتساع العلاقات التجارية وغير

* باحث في اللغات القديمة.

التجارية بين أوغاريت والقوى المتواجدة على الساحة آنذاك، كما يشهد على كوسموبوليتانيتها بامتياز.

رسالة وتعويذة، عرض لدراسة ابيغرافية للوحين أوغاريتيين هو موضوعنا. والمقصود بعبارة ابيغرافية هو الطريقة المتبعة في قراءة الألواح المكتوبة أو المنقوشة على مواد صلبة. حيث الـ "ابيغرافيا" هو علم قراءة الخطوط المنقوشة القديمة (من اليونانية: هُك = فوق أو على، و مِّلق = كتابة أو نقش كتابي).

أما الرسالة فهي "رسالة ملك صور إلى ملك أوغاريت" والتي عثر عليها في فرن شيّ الألواح الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القصر الملكي.



ومما يلفت الانتباه ويثير الاستغراب والتساؤل معاً، هو مسألة ما إذا كان ملك صور أو كتبته الذين أرسلوا الرسالة إلى ملك أوغاريت يعرفون الأوغاريتية أم لا ، ولماذا يخاطبون ملك أوغاريت بالأوغاريتية حتى ولو كانوا يعرفونها؟ والحقيقة أن هذين الاحتمالين مستبعدين لأن لغة التخاطب الرسمي بين الملوك آنذاك كانت الأكادية حسب الأعراف السائدة آنذاك، فليس من المحتمل أن الرسالة التي بين أيدينا اليوم كانت هي النسخة الأصلية التي كتبت بالأكادية على ما يعتقد (؟)، بل هي نسخة مترجمة عن الأصل الأكادي (؟) -المفقود اليوم- إلى الأوغاريتية. ومما يرجح هذا الاحتمال الأخير هو أن اللوح عثر عليه في فرن شيّ الألواح، ويستنتج من الأدلة الاركيولوجية أن زمن وصول هذا اللوح كان عشية دمار أوغاريت على يد من يُعرفون بشعوب البحر، نحو أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر السابقين للمسيح، حيث كانت قد أعدت هذه الترجمة على هذا اللوح وأرسلت لتوها إلى فرن الشيّ تمهيداً لعرضها على ملك أوغاريت ومن ثم لحفظها في الأرشيف الملكي. ولسنا نمتلك الأدلة التي تمكننا، يقيناً، من الاستدلال على اسم ملك أوغاريت أو نظيره الصوري.

اللوح مكتوب على وجهيه، ويتألف الوجه الأول من ثلاث فقرات يفصل بينها خطان أفقيان وعدد أسطره ثلاثة عشر، بينما الوجه الثاني يتألف من فقرة واحدة عدد أسطرها أربعة عشر سطراً، فيكون مجموع أسطر الرسالة سبعة وعشرين سطراً مخطوطة من اليسار إلى اليمين.

الرسالة:

لنبدأ الآن بالرسالة، وسننهج في عرضها الابيغرافي المراحل التفصيلية التالية، جرياً على المألوف في علم الابيغرافيا:

١.

أن ي ك ن . دت.

ل ي ك ت.م ص ر م.

ه ن د ت.ب.ص و ر.

م ت ت[ت م ت ت].ب ي.

ج ش م .أدر.

١- استنساخ النص كما ورد على اللوح بالأوغاريتية

٢- نقل أو تحويل أحرف النص الأوغاريتي المسماري إلى ما يقابلها بالأحرف العربية، أي قراءة النص بعبارة أخرى.

٣- الترجمة الحرفية للكلمات بدقة وبدون أي تحريف أو تدخل من القارئ.

٤- إعادة صياغة الترجمة الحرفية أعلاه إلى ترجمة مكافئة لها بالعربية، أي تعريب النص لكي تصبح معانيه واضحة ومفهومة وجلية بالنسبة للقارئ اليوم:

أخبر أخي ملك أوغاريت
خطاب أخيك ملك صور
لتسلمك الآلهة، تحميك وتسلمك
نحن هنا بسلام، وليكن الكل ومن حولك بسلام.
وافني بالإجابة (أي أرجو الإجابة على رسالتي هذه)
إن سفنك التي كنت قد طلبتها من مصر
وجدت نصفها في صور
بسبب عاصفة مطرية شديدة
وأن رئيس السدنة (أو الربان)
أخذ كل الحبوب من الدنان (أو الجرار)
فانتزعت القوارب من أيدي رئيس السدنة
وكل ما فيها من حبوب وسدنة وخلافه
وأعدت المحتويات والسدنة إلى القوارب
أما النصف الآخر من سفنك
فقد أفرغ في عكا
فلا يضع أخي هما في قلبه (أي فلا ينشغل باله وليكن مطمئناً).

إلى هنـــا وينتـــهي حديثنـــا عـــن الرســالة[١] ونـأتي الآن إلى التعويـذة الـتي سـننهج في عرضـها عرضـاً مغـايراً. فلـن نعـود إلى التفصيـل الـذي لجأنـا إليـه في عـرض الرسـالة، بـل سـنعطي أهـم مـا ورد فيـــها معربـــاً وجـــاهزاً وذلـــك اختصـــاراً للوقـــت ودفعـــا للملـــل، ولا سـيما بعـد أن سـلطنا الضـوء علـى تفـاصيل العمليـة الابيغرافيـة الـتي لا أرى داعيـاً لتكرارهـا هنـا.

التعويذة:

التعويذة نجدها على اللوح الآخر الذي تم العثور عليه في مـا بـات يُعـرف ببيـت الكـاهن في الحـي المرتفـع مـن المدينـة أو "الاكروبوليـس" الواقـع إلى جهـة الشـمال الشـرقي منـها. واللـوح مـن الصلصـال أو الارجيل ويعـود إلى القـرن الثـالث عشـر، أبعـاده ٢٤,٥ × ١٦ سـنتيمتراً، محفـوظ حالياً في متحف دمشق الوطني تحت رقم ش ٦٥٨٧ (ر. ش ٢٤/٢٤٤) وقد قرأه يرولو

	القـراءة	الترجمة الحرفية
٠١	ل م ل ك. ؤ ج ر ت	إلى ملك اوغاريت
٠٢	أ خ ي ر ج م	أخي قل
٠٣	ت ح م. م ل ك. ص ر. (آ خ ك)	رسالة ملك صور (آخيك)
٠٤	ي ش ل م ل ك. ئ ل م.	لتسلمك الآلهة
٠٥	ت غ ر ك ت ش ل م ك.	تحميك وتسلمك
٠٦	هـ ن ن ي. ع م ن.	هنا بالقرب عندنا
٠٧	ش ل م. (ت) م ر ي.	سلام هو هناك
٠٨	ع م ك. م ن م. (ش) ل م.	بالقرب منك ليكن الكل بسلام
٠٩	ر ج م. ث ث ب. (ش ش) (.)	قل كلمة .
١٠	آ ن ي ك ن. د ت.	سفنك التي
١١	ل ئ ك ت. م ص ر م.	أوصيت في مصر
١٢	هـ ن د ت. ب. ص و ر	تلك التي بصور
١٣	م ت ت [ت م ت ت]. ب ي.	النصف بـ (سبب)
١٤	ج ش م. أ د ر	مطر شديد
١٥	ن ش ك ح. و.	وجد و
١٦	ر ب. ت م ت ت.	رب السدنة
١٧	ل ق ح. ك ل. ذ ر ع.	آخذ كل الحبوب
١٨	ب د ن ت م [(آ) (-) م]. و. آ ن ك.	من الدنان (الجرار) والسفن
١٩	ك [ل]. ذ ر ع هـ م.	و كل حبوبها
٢٠	[ك] ل. [ن] ف ش ؟	وكل (الـ) أشخاص
٢١	ك [ل ك] ل هـ م. ب د [و (ك) ل هـ م. ب د]	جميعهم كل ما في السفن من آيدي
٢٢	ر ب. ت م ت ت. ل ق ح ت.	رب السدنة أخذت
٢٣	و. ث ث [ش ش] ب. آ ن ك. ل هـ م.	وجعلتها تعود إلى السفن
٢٤	و. آ ن ي ك. ث [ش] ت.	والنصف الآخر من سفنك
٢٥	ب ي. ع ك ي. ع ر ي ت	بعكي أفرغت
٢٦	و. أ خ ي. م هـ ك.	وأخي هما
٢٧	ب. ل ب هـ. آ ل. ي ش ت.	بقلبه لا يضع



ثم كاكو ثم كسيلا.

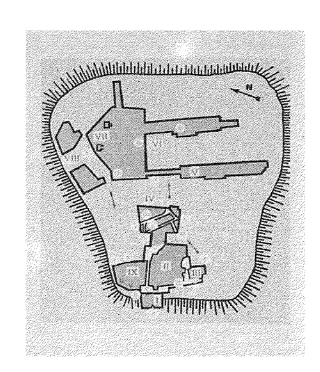
اللوح مكتوب على وجهيه، ويحتوي كل وجه على ثمانية وثلاثين سطراً موزعة على حقول أو فقرات. وإليكم فيما يلي مختارات مترجمة من هذا اللوح:

١- إن أم الفحل، الفرس الأصيلة، ابنة النبع، ابنة الحجر، ابنة السماوات والمحيط
٢- صرخت نحو شفش أمها، يا شفش أمي، احملي صوتي إلى
٣- إل وإلى نبع النهرين وملتقى المحيطين
٤- احملي استعاذتي من عضة الثعبان السام، من الثعبان
٥- الذي انسلخ جلده. يا مروّض الأفاعي: دمّره، واستخرج منه
٦- سمه، وليكن الثعبان مربوطاً، وليكن الثعبان شبعاناً
٧- وليتخذ مقعداً، ويركن إليه

انتهت، إلى هنا، ترجمة الحقل الأول أو الفقرة الأولى. ولكي لا نطيل، نقول أنه في الحقول التالية تستمر الدعوات بالصيغة ذاتها لعدة آلهة في مواطنها المعتادة، سواء منها الميثولوجية مثل موطن بعل (في أعالي صفون) وشاهار وشاليم (في السماوات) أم تلك التي ليس لها مواطن محددة مثل عناة وعشارت، وهذه الأخيرة من ماري، وكوثر-خاسيس (في كريت أو كبدوكيا) وداجان (في توتول أو تل البيعة اليوم) وغيرها. حتى الفقرة الحادية عشر ولغاية السطر السادس والخمسين، لا يبدي أيّ من الآلهة حراكاً أو استجابةً لهذه الدعوات. ولكن اعتباراً من الفقرة الثانية عشرة، نجد الإله هورون "في كهفه" وهو يقبل بالتدخل ويستجيب للدعاء على خلاف باقي أعضاء البانثيون. وتحضر شفش، الإلهة الشمس، أم المستعيذة، تحضر بنفسها إلى الإله هورون.

نعود هنا إلى حرفية النص المترجم من السطر ٦١ وحتى نهاية اللوح، أي السطر ٧٦.

٠٦١ تدير شفش وجهها نحو هورون، وهي التي ستحرم من أطفالها
٠٦٢ في مملكته
٠٦٣ و هاهو يتجه نحو اراسيخ الكبرى
٠٦٤ ونحو اراسيخ المروية جيدا (؟). ويقتلع الأثل من بين الأشجار
٠٦٥ نبتة الموت من بين الأحراش. ويهز الأثل من أجلها
٠٦٦ ويقتلع عنقود تمر الأثل من أجلها. ويزيل الألم من أجلها وهو يأ..
٠٦٧ .. خذ الوبالة من أجلها. ويصل هورون إلى بيته
٠٦٨ ويتجه نحو غرفته، والسم يفقد قوته بسرعة كالشلال الهادر



٠٦٩ ويتمدد ليصبح كخيط ماء

٠٧٠ وعليه خلصت البيوت، وعليه أغلقت البيوت،

٠٧١ وعليه أغلقت باب بيت المستعيذ

٠٧٢ باب المنزل وأحجار (؟) القصر وأغادر

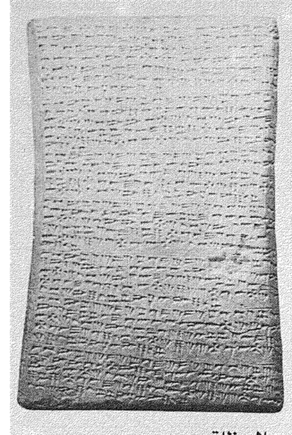
٠٧٣ أعطني الثعابين كهدية، والعظاية السامة، اعطني إياها كـ..

٠٧٤ .. مهر، وصغار الزواحف كهدية.

٠٧٥ (أجل) سأعطيك الثعابين كمهر، وصغار الزواحف

٠٧٦ كهدية.

(انتهت قراءة اللوح)



ملاحظات:

١- في هذا المقطع الأخير من النص، أي الأسطر ٦١-٧٦، سيتقاضى الإله هورون ثمن تدخله. وهذا الثمن هو احتفاظه بابنة شفش، أي أن شفش "ستحرم من أطفالها" طبقاً لحرفية ما جاء في السطر ٦١ من اللوح. إذن، لن تكون خدمته مجانية على أية حال. ولكن الإله هورون سينصرف، بالمقابل، إلى عدة مهام تهدف إلى الوفاء بالتزامه وإبطال مفعول السم. ولكن أم الفحل -هكذا وردت تسميتها حرفياً في النص الاوجاريتي للتعويذة-

ستظفر مقابل حرمانها من أطفالها، بأن ينتقل إليها سلطان إبطال مفعول السم والقدرة على إزالته، حسبما ورد في الأسطر ٧٣ - ٧٦.

٢- يعرض لنا هذا النص لائحة بآلهة أوغاريت تظهر ترتيب توارثهم للسلطة، بطريقة التصفيات، حيث يعين هورون الإله المشهود له في أوغاريت "سيداً للثعابين".

٣- إن سقوط اسم الربة "عشار" أو "عثارت" (وهي ربة من ماري) سهواً في هذه الفقرة من النص، والذي عاد الكاتب واستدركه على الحافة اليسرى للوح بحذاء هذه الفقرة، يقدم لنا الدليل على أن الاعتقاد بنجاعة الاستشفاء كان منوطاً باحترام التعداد الكامل للأسماء الإلهية وفقاً للترتيب القانوني الراسخ، الذي ورد في فقرة سابقة من اللوح إياه.

٤- وأخيراً، فإن الحيازة المسبقة لنص هذه الواقعة الميثولوجية، والاحتفاظ بها أو تلاوتها في بيت للمؤمنين أو في "بيت المستعيذين" من شأنه وقاية هذا البيت من شر عضات الأفاعي السامة. ومن هنا اسمينا هذا اللوح "التعويذة".

الخاتمة:

وفي الختام، ولا شك وأنكم أخذتم، من خلال هذا العرض الابيغرافي لأنموذجين من الألواح الأوغاريتية، فكرة عن مدى غنى وتنوّع الإرث الثقافي لهذه الحاضرة السورية العظيمة، وهذا أمر بات معروفاً للقاصي والداني على حد سواء.

وإذا كانت هذه الفكرة هي إحدى أهداف ثلاثة لهذا العرض، فإن الهدف الثاني هو تسليط بعض الضوء على الجهد الذي يبذله عالم الابيغرافيا للوصول إلى هذا التراث، وهو تراث على جانب كبير من الغنى بحيث يستحق ذلك الجهد، وإن ما أريد قوله هنا هو أن العملية الابيغرافية أو عملية قراءة الكتابات المنقوشة القديمة ليست بالمهمة اليسيرة على الإطلاق كما يتراءى لبعضهم، وتتطلب الكثير من المعرفة، ولم تكن يوماً كمثل قراءة الصحف أو المجلات. هذا ناهيكم عن الصعوبات الإضافية الناجمة عن التشويه في الوثيقة الأصلية وفقدان المقاطع التي يتطلب ترميمها دراية وبراعة فائقتين، كما يتطلب الوفير من الخبرة والجهد والصبر والعناد والحذر في آن معاً. ولقد اختبرت ذلك شخصياً من خلال تجاربي الكثيرة في قراءة النصوص غير المقروءة سابقاً والتي أصبحت مصنفاتي تكتظ بها اليوم بانتظار نشرها. وأذكر على سبيل المثال لا

الحصر، إن إحدى الكتابات المنقوشة باليونانية القديمة على مدخل مدفن موجود في الجبل الوسطاني قرب جسر الشغور والمؤرخ عام ١٨٠ حسب التقويم الإنطاكي (١٣١ م) كلفتني عملية ترميم الأجزاء الناقصة فيه جهداً متتابعاً على مدى شهرين من الزمن، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لقارئ الكتابات القديمة. كما أذكر أيضاً أن قراءة القانون الضريبي التدمري بنصّيه التدمري واليوناني استغرقت أكثر من ربع قرن وتناوب عليها العديد من علماء الابيغرافيا قبل أن تستقر على ما يمكن اعتباره أنه شكله النهائي اليوم.

أما الهدف الثالث من العرض هو رسالة أخرى وتعويذة أخرى غير التي عرضتهما. أما الرسالة فألخصها بالسؤال التالي: أفلا يستحق تراثنا المكتوب في أوغاريت وماري وايبلا وتوتول (تل البيعة) وبيت عديني وبيت حيلاني وغيرها الكثير والكثير من مواقعنا السورية الأخرى، أفلا يستحق هذا التراث منا نحن السوريين، قبل غيرنا من غير السوريين، أن نتعلم قراءته بأنفسنا؟؟ أما التعويذة فهي من شر من قاموا في يوم ما ليس بالبعيد، في السبعينات من القرن المنصرم، بقراءة الايبلائية إثر اكتشاف أرشيفها الضخم، وما سببت قراءتهم من تبعات مسيئة ومشوهة لتاريخنا، ومن هم في حكمهم اليوم ممن يستهدفون ثقافتنا في عمقها.

والأمل معقود اليوم، ولو أننا تأخرنا كثيراً، على زمرة صغيرة من علمائنا الذين دخلوا هذا المجال مؤخراً. أما آن لنا أن نقرأ تاريخنا بأنفسنا؟؟ ■

المراجع:

1- C. VIROLLEAUD, Ugaritica V (1986) 564-574; -vgl. GLECS 9 (1961) 41f. 50f.; -10 (1964) 64-66; - CRAI XI Leiden 1962, 105-113; -

M. ASTOUR; JNES27 (1968) 13-28; -A. CAQUOT; Syria 46 (1969) 241-265; - E.

2- LIPINSKI: UF 6 (1974) 169-174; - M. DIETRICH/O. LORENTZ/J. SANMARTIN: UF 7 (1975) 121-125; - T. H. GASTER: JANES 7 (1975) 33-51; -D. PARDEE: JANES 10(1978) 83-108; -M. TSEVAT: UF 11 (1979) 759-778; - P. XELLA, I testi rituali di Ugarit I (1981) 224-240; -A. CAQUOT, M. SZNYCER& A. HERDNER, Textes Ougaritique-s I, Paris, (1974), Theologische Zeitschrift.

3- الأب الربان حزائيل صومي، المجلة البطريركية، الأعداد ١٩١-١٩٢-١٩٣(٢٠٠٠)، السنة ٣٨، ٤١-٥٢، دمشق.

ملحمة أقهات الأوغاريتية

فراس السواح*

تقديم:

1 ازدهرت ثقافة أوغاريت (المدينة الواقعة على الساحل السوري الشمالي قرب مدينة اللاذقية الحديثة) خلال عصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ق.م)؛ وإلى هذه الفترة النشطة من حياة المدينة ترجع كل المنقوشات الكتابية التي اكتشفت في الموقع، خلال حفريات بدأت عام ١٩٢٩، ومازالت مستمرة. يتألف القسم الأعظم من هذه المنقوشات من نصوص اقتصادية، ومراسلات ديبوماسية، ونصوص طقسية، وصلوات وتعازيم، وقوائم بأنواع الأضاحي. ولكنها احتوت أيضاً على نصوص أدبية، مازالت تشكل حتى الآن مصدرنا الرئيسي عن الأدب الكنعاني ومجمع الآلهة الكنعاني. وقد وُجد معظم هذه النصوص في منطقة المعابد؛ ولكن هذا لا يعني أن الحي المقدس قد احتكر نشاط الكتابة لنفسه، لأن أرشيفات أخرى متفرقة قد وُجدت في أماكن عدة من المدينة، بل إن وجودها في منطقة المعابد يدل على أنها تملك وظيفة دينية ما.

تتألف هذه التركة الأدبية من نصوص ميثولوجية، مثل "سلسلة بعل وعناة"، الأكثر وضوحاً للقراءة، ومثل "مولد الغسق والسحر"، و"الرفائيم"، و"زواج نيكال من إله القمر" وهي أقل وضوحاً للقراءة بسبب فقدان معظم مادتها. يضاف إلى هذا ملحمتان طويلتان، الأولى "ملحمة كِرْت"، والثانية "ملحمة أقهات". وكما هو الحال في الملاحم الكلاسيكية الأكثر شهرة، وفي ملاحم الشرق القديم كملحمة جلجامش، فإن الأبطال الرئيسيين هنا هم أشخاص بشريون رغم أن الآلهة تلعب دوراً هاماً في أحداث الملحمة التي تجري في حيز إلهي-إنساني متصل.

---

* باحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان.



كُتبت النصوص الميثولوجية والملحمية، مثل غيرها من النصوص الأوغاريتية، على ألواح من الطين ندعوها رُقماً، بالخط الأبجدي المسماري، وباللغة الأوغاريتية وهي إحدى لهجات اللغة السامية الغربية. وكانت هذه الألوح، أو الرُقم، تشوى في أفران خاصة بعد أن تُنقش وهي طرية على كلا الجانبين، في عمود أو عدة أعمدة تحتوي على أسطر تكتب بشكل متواصل مع علامات تقسيم تفصل بين الكلمات. وبالرغم من أن هذه النصوص قد دونت في أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلا أن أصولها كانت آداباً شعرية متداولة بشكل شفوي قبل تدوينها بزمن طويل. وبما أن الخط الأوغاريتي كان يستخدم الحروف الساكنة فقط، كان من الصعب علينا تكوين فكرة عن قواعد الوزن التي تحكم ذلك الشعر، إن وجدت، كما أن القافية لم تكن مستعملة في صياغته. ولكننا نستطيع تمييز النص الشعري من لغته الأدبية الراقية، ومن خاصية أساسية فيه هي التوازي، وهي خاصية لا تطمسها الترجمة لحسن الحظ. إن العنصر الأساسي في الأسلوب الشعري القائم على التوازي، هو وحدة تتألف من بيتين أو ثلاثة يجري من خلاله توسيع فكرة واحدة عن طريق التكرار وإعادة الصياغة، أو التضاد.

والمقطع التالي من سلسلة بعل وعناة، يوضح لنا كيفية استخدام عنصر التوازي:

دعني أخبرك أيها الأمير بعل
دعني أكرر يا راكب الغيوم:
هو ذا عدوك يابعل،
هو ذا عدوك، سوف تقتله
ها أعداؤك، سوف تفنيهم
ولسوف تفوز بالملك على الدوام
ويا للسلطان إلى أبد الآبدين.

يتكون هذا المقطع من ثلاث وحدات تُعبّر كل منها عن فكرة كاملة. ومثل هذا الأسلوب مألوف لنا في المقاطع الشعرية التي ترد في كتاب التوراة العبرانية، والتي نسجت على المنوال الكنعاني في أسلوب التوازي. نقرأ في سفر المزامير على سبيل المثال:

لأنه هو ذا أعداؤك يارب
هو ذا أعداؤك يبيدون
كل فاعلي الإثم يتبددون (المزمور ٩٢: ٩)

وأيضاً:

مُلْكك مُلك كل الدهور
وسلطانك في كل دَوْر فدور (المزمور ١٤٥: ١٣)

ملحمة أقهات:

بالرغم من عنوان هذه الملحمة، الذي يشير إلى شخصية بطلها، إلا أن قصة أقهات هنا تشكل الجزء الثاني من قصة أطول تدور حول أبيه المدعو دانئيل

(= دانيال) (ومعنى الاسم إيل قاضي، أو الله قاضي)، وهو شخصية ملكية كانت حكمتها واستقامتها موضوعاً ملحمياً قديماً، ووصل ذكرها أسماع مؤلف حزقيال التوراتي الذي ذكر دانئيل، أو دانيال كما أسماه، بين ثلاثة من أكثر الشخصيات براً وعدلاً في تاريخ البشر (راجع حزقيال ١٤: ١٤، و١٤: ٢٠،و٢٨: ٣). إن ما تبقى لنا سليماً من هذه السلسة يدور حول علاقة دانئيل بابنه أقهات، وتتشابك علاقة هاتين الشخصيتين مع شخصيتين رئيسيتين أخريين هما فوغة أخت أقهات، والإلهة عناة.

كان دانئيل حاكماً محبوباً، وقاضياً عادلاً يقضي للأرملة، وينصف اليتيم، عند البيدر بالقرب من بوابة المدينة، في كل يوم. ولكنه كان عاقراً. في بداية اللوح الأول من الملحمة، وبعد عشرة أسطر تالفة، نجد دانئيل معتكفاً في المعبد يقدم القرابين للآلهة ويتضرع إليها علّها تهبه ابناً يرثه. في اليوم السابع من اعتكافه وإقامته الطقوس، يظهر له الإله بعل مشفقاً على بؤسه، ويعده بالتوسط لدى كبير الآلهة إيل ليزيل عنه لعنة العقم. ثم يتوجه بعل إلى مقر إيل ويبسط أمامه قضية دانئيل:

ليس له ابن كما لإخوته،
ولا وريث كأولاد عمومته.
لقد قدم ذبيحة لطعام الآلهة،
وماء قربان لهم ليشربوا.
لتباركنه يا أبي، أيها الثور إيل،
لتقوينّه يا خالق الخلائق،
فيكون له ابن في بيته وذرية في وسط قصره.

استجاب إيل لالتماس بعل وبارك دانئيل:

عندما يقبل زوجته سوف تصبح حاملاً،
وعندما يعانقها سوف تلد.
سوف تمسي حاملاً. سوف تلد. سوف تنجب
وسيجد في بيته ابناً،
وذرية في وسط قصره.

يتقوى قلب دانئيل وتعود إليه روحه بعد هذا الوعد فيذهب إلى بيته وهناك:

في غرفته اطمأن، فصعد إلى سريره،
وانحنى يقبل زوجته.
فحمحمت، من ضمه حمحمت،
وحبلت لتلد و حمحمت.
ليكون له ابنٌ في بيته،
وذريةٌ في وسط قصره؛
فيقيم نصباً لإلهه الحامي،
ومصلى في الحرم المقدس،
ويرد عنه إهانة من يحتقره،
ويطرد الذي يقلق راحته.

بعد ذلك يولم دانئيل وليمة لإلهات الحمل والولادة، اللواتي يدعوهن النص



بنات الهلال، صنو السنونوات في جمال الصوت والغناء. أولم دانئيل لبنات الهلال ستة ايام. وهن (على ما يبدو) يقمن بإنشاد تراتيل معينة من شأنها تقوية المرأة الحامل. وفي اليوم السابع صرفهن مكرمات وقبع يعد الأشهر المتبقية لولادة وريثه.

يلي ذلك جزء طويل مفقود من النص يقص عن ولادة ابن لدانئيل دعاه أقهات، وكيف صار فتى يافعاً مولعاً بالصيد متمرساً بفنونه. وعندما يغدو النص واضحاً للقراءة نجد دانئيل وهو جالس عند البوابة قرب بيدر القمح يقضي للأرملة وينصف اليتيم، عندما رآى عن بُعد الإله كوثر- حاسيس، إله الحرف والصناعة، قادماً إليه من موطنه مصر وبيده قوساً وعلى كتفه جعبة ونبال. فنادى زوجته قائلاً: اسمعي أيتها السيدة دانتيّة: أعدّي خروفاً من القطيع لإكرام كوثر-حاسيس، وتجهزي لإطعام وإسقاء الآلهة. استجابت دانتية وأولمت للإله الضيف، فأكل وشرب على مائدة دانئيل. وعندما هَمَّ بالمغادرة أعطى القوس الذي يحمله والجعبة والنبال إلى دانئيل هدية لبكره أقهات. ولما توارى عن الأنظار قام دانئيل بتسليم القوس العجيب الصنعة إلى أقهات قائلاً له: إن بواكير صيدك يابني ستكون قرباناً إلى المعبد.

بعد نقص آخر في النص، نجد الإلهة عناة مدعوة إلى وليمة، ربما في بيت دانئيل احتفالاً بالقوس الفائق الصنعة الذي وهبه إله الحرف لأقهات، وهي تقطع بمدية ضلع حمل مشوي، وتعبُّ من الخمر كأساً بعد كأس، حتى انتشت وسُرَّ فؤادها. وعندما عُرض عليها القوس دهشت، وهي الصيادة الماهرة، لما رأت من جماله وإتقان صنعته، وتاقت نفسها لامتلاكه. وفي نوبة من نوبات غضبها التي نعرفها من نصوص عديدة أخرى، رمت كأسها إلى الأرض، ورفعت صوتها متوجهة بالقول إلى أقهات:

اسمع يا أقهات، أيها الفتى البطل:
اطلب فضة مني أعطيك،
اطلب ذهباً منى أهبه لك؛
ولكن أعط قوسك لعناة،
أعطها جعابك ونبالك.

ولكن أقهات يرفض طلبها، ويقول لها أن تطلب من كوثر-حاسيس أن يصنع لها قوساً مماثلاً. فتذهب عناة أبعد من ذلك وتتمادى في ترغيب أقهات:

اطلب الحياة يا أقهات، اطلب أيها البطل
اطلب الحياة أعطيكها، والخلودّ أهبه لك
فتستوي مع بعل بسنوات الحياة
وتستوى بالشهور مع أبناء إيل

يرفض أقهات كرة أخرى، ولكن جوابه هذه المرة يتخطى حدود اللياقة:

لا تكذبي علي أيتها البتول،
أليس كذبك على البطل عيباً!
ما هي آخرة الإنسان،
وما الذي يأخذ من دنياه؟
يُصب الكلس على رأسه،
والجص على جمجمته.
سأموت مثل كل إنسان فان،
كبقية الموتى، نعم سأموت.
شيء آخر أريد قوله لك:
إن القسيَّ مُعدٌ للرجال
فهل عرفت النساء الصيد قط!

بالرغم من واقعيتها، فإن ردة فعل أقهات في قسمها الأول قاسية بما فيه الكفاية: فهو ينكر مقدرة عناة على تحقيق ما وعدت به، لأن الموت بالنسبة للبشر أمر مقدر منذ البدء ولا مهرب منه. أما في القسم الثاني الذي ينكر فيه أهليتها لحمل السلاح، فإن أقهات يتحدى جوهر الإلهة نفسه.

لم تكن ردة فعل عناة أقل قسوة من ردة فعل أقهات: فقد أطلقت ضحكة مغتاظة وقالت له متوعدة:

التفت إليَّ يا أقهات، أيها البطل،
واسمع ما أقوله لك:
إذا لقيتك في دروب الشر،
إذا وجدتك في دروب الخيلاء
(= إشارة إلى الحرب)،

سأصرعك تحت قدمي يا أجمل الناس وأشدَّهم.
ثم رفست الأرض بقدمها،
وتوجهت نحو إيل عند منبع النهرين،
وسط مجرى الغمرين. ودخلت حمى إيل،
وجاءت قصر الملك أبي السنين.
عند قدمي إيل سجدت،
انحنت له وبجلته،
ثم تكلمت بالنميمة على أقهات؛
رفعت صوتها وصاحت
"..... (أربعة أسطر ناقصة)
ابنة بيتك قد أهينت
لا تفرح، ولا تبتهج لشموخ هيكلك
..... (أربعة أسطر مشوهة)
سأجعل الدم يجري في شعرك الأبيض
وشيب لحيتك أخَضّبه بالدم
فادعُ أقهات لينجيك مني
ونادي ابن دانئيل لينقذك من قبضة البتول"
أجابها اللطيف، إله الرحمة:
"أعرف أنك دمثة يابنتي
وأنه ليس في الألهات دناءة
اذهبي واكبتي غضبَ قلبك
والخزيُ الذي في قلبك احفظيه في صدرك
فإنك دوساً ستدوسين الذي يتعقبك"

بعد أن تحصل عناة على مباركة إيل في مسعاها للانتقام، تستعين بخادمها يطفان، وتزين له قتل أقهات. سوف تحوله إلى نسر يطير مع سرب النسور؛ وعندما يجلس أقهات إلى الطعام في قرية الأباليم، ينقض عليه يطفان ويضربه على رأسه وينتزع منه القوس. سارت الخطة حسب المرسوم، ولكن ضربة يطفان كانت من القوة بحيث قتلت أقهات، فانتزع منه القوس وطار بها، ولكنها سقطت من يده وهو يحلق فوق البحر. فبكت عناة وناحت؛ فقد قتلت أقهات ولم تحصل على قوسه، فأخذت على نفسها عهداً بأن تعيده إلى الحياة.

بعد ذلك نجد دانئيل من جديد جالساً عند بوابة المدينة يقضي بالعدل. تلاحظ ابنته بوغة (أو فوغة) أن الخضرة قد ذبلت في الحقول، وأن سرباً من النسور يحوم فوق بيت أبيها، وكلا هاتين الظاهرتين تنمان عن العنف والموت غير الطبيعي. فيطلب دانئيل من ابنته (التي يصفها النص بأنها العارفة بمسالك النجوم، وحاملة الماء على كتفيها، وناثرة الندى على الشعير) أن تسرج له حماراً، ويخرج بصحبتها يتفقد حقوله الذابلة، ويصلي لانهمار المطر. ولكن الأرض كانت قد دخلت في دورة جفاف ستدوم سبع سنوات بسبب موت أقهات. في هذه الأثناء جاء من يخبرهما بموت أقهات. بكى دانئيل على ابنه وصاح: سوف أصرع من قتل ابني، سوف أقضي على من قضى على ذريتي. وبعد أن دفن بقايا أقهات الذي التهمته النسور، أقام في بيته مناحة، استمرت سبع سنوات، قدم في نهايتها ذبيحة إلى الآلهة، وصرف النساء الندابات والذين يدمون أجسادهم ويشرخون رؤوسهم حزناً. عند ذلك تقدمت منه فوغة ملتمسة إذنه وبركته لكي تذهب وتنتقم لأخيها. فباركها وودعها.

ترتدي فوغة زي جندي، وتتقلد خنجراً، وتلبس فوق ذلك كله ثوب امرأة، ثم تذهب للبحث عن يطفان خادم عناة، وعندما تجده عند أطراف البادية بين سكان الخيام، يدعوها يطفان إلى الطعام والشرب وقد عرف هويتها ولكنه لم يعرف الغرض من زيارتها. وعندما يجلسان إلى المائدة تسقيه حتى تلعب الخمرة برأسه ويأخذ بالتباهي بقتل أقهات. يصعد الدم إلى رأس فوغة، فتهتاج هياج أسد وتغضب غضب أفعى. وهنا يتهشم الرقيم الأخير، وينتهي النص فجأة دون أن نعرف نهاية القصة.

ولعلنا في بحثٍ لاحق نُلقي الضوء على معنى هذه الملحمة ورسالتها، من خلال إجراء مقارنة شاملة بينها وبين نصوص أوغاريتية ونصوص رافدينية. ■

ألفاظ الأجداد

حسن م. يوسف*

كيف تنتقل الثقافة في العالم؟ هذا السؤال فرض نفسه علي بقوة شديدة منذ حوالي ثلاثين عاماً، وما أزال حتى اللحظة أبحث له عن جواب! بدأ الأمر عندما قرأت ضمن منهاج السنة الأولى من قسم اللغة الانكليزية عدداً من "حكايا كانتربري" لـ "جيوفري تشاوسر" (١٣٤٠ - ١٤٠٠) الذي يعتبر أهم شخصية أدبية إنكليزية في العصور الوسطى، والذي يقرأ بني قومه كتاباته حالياً مترجمة من الانجليزية القديمة إلى الإنجليزية الحديثة.

ذهلت عندما اكتشفت أنني قد سبق وسمعت إحدى تلك الحكايات من جدتي الأمية التي نزلت إلى المدينة مرة واحدة في حياتها، أرغمها أبي عليها، عندما مرضت. فكانت النتيجة أن أعطاها الطبيب حقنة بواسطة إبرة غير معقمة، فالتهب مكان الإبرة، ولكي لا يأخذها أبي إلى الطبيب من جديد تكتمت على البؤرة المتقيحة، مما جعل الالتهاب يتفاقم ويودي بحياة جدتي. ربما كنت أنت أيضاً قد سمعت نفس الحكاية من جدتك، فهي تدور حول ثلاثة رجال وجدوا كنزاً كبيراً فأرسلوا واحداً منهم إلى المدينة كي يحضر لهم طعاماً ودواباً لنقل الكنز. فتحرك الطمع في نفس الرجلين وقررا قتل زميلهما فور وصوله، وعندما نفّذا خطتهما جلسا ليأكلا فماتا على الفور. لأن الطمع كان قد تحرك في نفس الرجل الذي قتلاه فسمّم لهما الطعام.

يومها سألت نفسي: كيف اخترقت هذه الحكاية حواجز الزمن واللغة والمسافة لتصل إلى جدتي الأمية التي أمضت حياتها في قرية الدالية القصية المرمية على كتف جبل جوفين البعيد؟

في طفولتي كنت أسمع الناس يقولون (يا قرد) عندما يفاجأون بأمر ما أو يشعرون بالخوف، وعندما كبرت كنت أستهجن هذه الكلمة وأعتبرها دليلاً على التخلف. لكن أصل ومنشأ ودلالة هذه الكلمة بقي لغزاً محيراً بالنسبة لي، خاصة وأن بيئتنا الجبلية لا تعيش فيها القرود.

غير أني عرفت السر مؤخراً عندما زرت مدينة يبرود العريقة، والتقيت الأب الارشمندريت جورج حداد الذي يجري دراسات علمية على حضارة مملكة

* صحفي، كاتب درامي.

أوغاريت التي كانت حدودها الجغرافية التاريخية هي الحدود الحالية لمحافظة اللاذقية، حيث ابتكر المعلم الأوغاريتي في موقع رأس الشمرة قرب مدينة اللاذقية السورية، قبل أربعة وثلاثين قرناً من الزمان، أول أبجدية في تاريخ البشرية، ما يزال ترتيب حروفها مُتبعاً في كثير من اللغات الحية حتى الآن.

وقد ذُهلت عندما قال لي الأب جورج إن كلمة (يا قرد) ليست عربية، بل أوغاريتية، وليس لمعناها الحقيقي أية علاقة بالقرد كما يظن بعض الناس. فقد عثر على نصّ أوغاريتي ترد فيه لفظة "يا قرد" بمعنى (يا قوي، يا جبار)! أي أن عبارة (يا قرد) التي تتردد على ألسنة القرويين في جبال اللاذقية هي عبارة أشبه بالدعاء والاستجارة، توارثها الأبناء عن الآباء عبر آلاف السنين، وقد ظلوا يكررونها حتى بعد أن نسوا معناها الأوغاريتي الحقيقي!

ومع أنني لست متخصصاً في الدراسات القديمة، إلا أنني بدأت أفكر بالعبارات المتوارثة الملتبسة التي ما تزال دارجة في قرانا. في طفولتي كان الواحد عندما يريد أن يستنجد بالله أو أن يعبر عن دهشته أو استحسانه لشيء ما، كان يقول (أيلي)! ومع أنني لست متخصصاً في هذا النوع من البحوث إلا أنني أجد في نفسي ما يكفي من الجرأة كي أقول أن معنى هذه العبارة (يا الهي)! فمن المعروف أن "إيل" هو كبير الآلهة العربية السامية وقد كانت عبادته دارجة في المناطق السورية الساحلية، حتى أن لبنان كان يطلق عليه اسم "بيت إيل". وقد قرأت في (موسوعة الفلكلور والأساطير العربية) لشوقي عبد الحكيم أن جميع الشعوب والقبائل السامية ادّعت انتماءها إلى هذا الإله، فكلمة "إيل" في اللغات السامية تعني "رب" كما تعني القدرة أو القوة عند اليونان والكلدان. وتذهب الأساطير إلى أن إيل هو الذي بنى مدينة جبيل، ويوصف بأنه كان يملك أربع عيون، عينان من الأمام وعينان من الخلف، عينان يقظتان، وعينان نائمتان، أي أنه كان بوسعه أن "ينام مستيقظاً ويستيقظ نائماً".

وقد جاء في إحدى القصائد السومرية عن إيل:

تقارب السماء، فيكون الفيض
من السماء ينزل الفيض إلى الأرض
تلامس الأرض، فتكون الوفرة
من الأرض تصدر براعم الخصب
حكمتك هي الزرع، كلماتك هي الحياة
كلمتك هي الماء الغامر،
حياة جميع البلاد

والآن بات بوسعي لأول مرة في حياتي أن أقول (يا قرد) و (أيلي) وأنا أحس بالفخر لكوني أنطق ألفاظ الأجداد. ■

نصوص أوغاريتيَّة

أدت فرقة كورال الكنيسة الإنجيلية الوطنية بقيادة القس "أمير اسحق" مجموعة من النصوص الأوغاريتية، أعدها أدبياً سجيع قرقماز ومحمد أحمد سوسو، وقام بتلحينها على النمط الأوغاريتي الأستاذ الفنان زياد عجان، أما التوزيع الموسيقي فللفنان باسل دقاق.

الطبيعة

ذرّي الندى على الشعير
يا من تعرفين سير النجوم
وأثمار الأشجار خاضعة
الأشعة شمس محرقة
إن غيث السحب يروي المزروعات
والندى يبلل العنب
يقهر الإله البحر في قدرته
فتهدم قمم الأمواج
ها هو يدير وجهه نحو الإله
الذي يفجر الأنهر بالقرب من هوة المحيطين

موسيقى الشروق

نشيد الأرض

كل شيء في الطبيعة حيّ
له روح
الحقول مصدر غذاء البشر
روعة الإنسان ترقد في الأرض
الآلهة تحمي البشر
والطبيعة تتألم إذا مرضوا
يا إلهي
أحب الشعب الذي منحته الحياة
منحته الخبز والزيت
يا إلهي
هذا شعبي
دعه يحيا بأمان
دعه يحيا بأمان

النور والحياة

السماء بعيدة لا ينالها اليد
الأرض عميقة لا يدركها أحد
حياة بلا نور ماذا تزيد عن الموت؟
سعادة يوم يقابلها أيام من الدموع
الأيام تجري وفيها الحزن والفرح
ما يفعله الإنسان لا يدرك فحواه
كل ذلك كامن عند الإله

موسيقى الغروب

نشيد المطر

اسكب زيتاً
العيون: الأرض والسماء
الغلال: أشجار الكون
أسقط الماء للزرع أيها الغيم
أنزل المطر على الأرض يا بعل
أنزل المطر على الحقل أيها العلي
رحمة بالقمح في الحقول
رفقا بأبناء الأرض
اسكب المطر أيها الغيم
لتفرح الأرض
وتُسَرّ الحقول
ويسعد الإنسان
بنشيد المطر

النداء الأزلي

يا براكين تفجري
وتخلصي أيتها الأرض من الجحيم
لأن مملكة الشر في أسفل الأرض
فلتحرث الأرض وتزرع بذوراً أصيلة
وليهطل المطر.. لتنبت خيراً وعطاء
فالأرض وجدت من أجل الحياة
فلتشرق الشمس دائماً ولينحسر الظلام
ويحل السلام أيها البشر ■



Adonis

ALEP

Carlos Freire

IMPRIMERIE NATIO

في طريقكَ إلى حلب

(أدونيس)*

Adonis

ALEP

Carlos Freire

ترجمة: نضال نجار**

قادماً من حُماه أو اللاذقية،

في موكبٍ تحتشدُ الأشجار:

أشجار التفاح والتين والزيتون والفستق.

كل شجرة هي سريرٌ بحدِّ ذاتها.

ويهمسُ الظل:" خذني أيها النهار، وأغطيكَ بعذوبتي".

أما الغصنُ فيوشوشُ:" خذني أيها الليل، وأوشِّحُكَ بدفئي".

مطلقاً أسئلتكَ لن تقلقَ سكون هذه الكائنات المرتاحة تحت الاخضرار والتي تؤوي ثمار أشجار الفستق..

في طريقي؛ شاهدتُ الأيام تنتصبُ فوق السهول،

كسربٍ من العصافير تبني أعشاشها..

والأشجار، الواحدة تلو الأخرى، كانت تنحني لتحية الأجنحة..

لو استطعتُ -أيتها المروج- أن أتحدَّثَ إليك، ثغراً لثغر،

عن روح التاريخِ الذي يهدرُ في عروقي!..

لو كنتُ أستطيعُ حمل غصن زيتون لأتوِّجَ الشمسَ به..!

في طريقي؛

كنتُ قد أصختُ السمع إلى المواويل والأناشيد القوية وهي تخرجُ من حناجر الريفيين.. كانت مزيجاً من الحزن المشوبِ بالفرح، ومن الفرحِ الممزوجِ بالحزن.

استمعتُ إلى القدود، تلك الأناشيد الأسطورية الخاصة بهذه البلدة، وإلى

* علي أحمد سعيد، شاعر وباحث في التراث.

** شاعرة ومترجمة عن الفرنسية.



الأدوار والموشحات، تلك القوافي والقصائد، ثم انتقلتُ من مقامٍ إلى آخر، مجتازاً النغمات الاثنا عشر..

غير مبالٍ بهدير السيارة التي تقلّني وهي تلتهمُ سواد الاسفلت، كنتُ مستغرقاً في الموسيقا التي عزفتها التلال، والحقول والقرى، أرقبُ المنظرَ على شكل ناي أو عود أو قانون: نايات ودفوفٌ ومزاهر.. تنبتُ من الأصابع مادفعني أن أتخيَّل وكأن الأشجار تشكّلُ جوقةً تغني وترقص..

"كيف ستواجه هذه البلدة -حلب- ذات السبعة آلاف عام في الذاكرة؟!.."

تلك الأعوامُ دفعتني استدعاءَ الحجارة الكلسية، البيضاء والصفراء والسوداء، في الوقت الذي اكتشفتُها على هيئة واجهات وقناطرَ وأعمدة متناثرة على الأسطح..

هي ذي رسائل أبجدية الماضي...

حلب: هي عدد كبيرٌ من الأسماء التي بمجملها تشكل حجر الأساس فيها -إن نحن نعتقد بما يقال لنا عنها-

هذه الأسماء هي "خالمان" بموجب رُقُم ايبلا، وهي "خلاَّبة" بموجب رُقُم ماري، وهي أيضاً "بيرويا" مسقط رأس والد الاسكندر المقدوني..

قلتُ لنفسي: وعلى غرار الاسكندر المقدوني الذي استأذنَ معلمه أرسطو للبقاء فيها حتى الشفاء، يخطرُ على ذهني الآن أن أتفهم سبب وصوله إلى هذه البلدة كما فعل أولاده الذين فيها ترعرعوا وكذلك تعلّموا حقيقة صفاء ونقاوة الرمز:

فالمتنبي والفارابي، الحمداني، البحتري، الصنوبري، المعري، السهروردي، أضيفُ إليهم القديس افرام وسامي شوا، فرانسيس المرَّاش، الكواكبي، عمر أبو ريشة، أورخان ميسر، علي ناصر وفاتح المدرس..

كذلك، يعكسُ التاريخُ ضوء الحقيقة ويبثُّ أيضاً غيوماً من غبار..

أذكر كتابة منقوشة:

لن تدخل الأشياءَ إلاَّ حين تغوصُ في أعماقكَ..

هل ينبغي أن أُنقّبَ المدينة لأتحدثَ عنها وكأنني أسبرُ جسدي لأعبِّرَ عما فيه؟..

للحقيقة أقول: إن تفاحة حواء وآدم ليست سرير الغواية المشترك فالتاريخ أيضاً له تفاحته.. ■

في العدد القادم

البنيان الفني في روضة التعريف

حوارية بين القلعة والمتنبي

المتنبي يودع الألفية الثانية في مدينة حلب

بهيجة مصري إدلبي*

القلعة: أراك حزينا والقوافي حزينة ... بدونك ما كان الخلود قوافيا

المتنبي: تمر رياح الوقت موتا كما هي ... كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
فحسب الليالي أن تعاود ليلها ... *"وحسب المنايا أن يكن أمانيا"*
أتيت إليك اليوم والقلب مرهق ... من الدهر والأحلام أمست خواليا
فطافت على قلبي هموم كثيرة ... وبت وحيدا في النوى لا أخا ليا
كأني من البرد احترقت ولم أكن ... سوى من دموع لا تمل المآقيا
يقولون مر العام والعام مقبل ... على أنني ما عشت إلا ثوانيا
كأني من البدء القديم نهاية ... ولم أك يوما في النهاية باديا
سعيت إلى نفسي ونفسي بحيرة ... وحيرة نفسي أن أراني جانيا
هو الدهر مسكون بحلم مؤجل ... وما من سبيل مرة قد صفا ليا
تعبت وعمري موغل في مسائه ... وريح انكساري من دمائي رمى بيا
هي الألف بعد الألف تأتي كأنها ... بلا موعد كانت وماتت كما هيا
دعيني على وهمي أحاول أن أرى ... سرابي مناجاة وريحا مواتيا
أنا الليل ناداني فتهت بعتمتي ... ورحت أنادي من يفك وثاقيا
توسلت بالأحلام حتى حسبتني ... سرابا على وجه المسافة واهيا
وقفت بباب الحزن أدركني الأسى ... وبانت لي الدنيا كما لم تبن ليا
سألت جهات الصمت عن موعد الضحى ... فقالت يميني تاه فيه شماليا

* أديبة تكتب الشعر والقصة والرواية.

القلعة: كأني أراك اليوم والحزن سيد فما ذا دهاك اليوم بالحزن ماضيا
كأنك ما أوحيت للدهر سره وما قلت يوما للزمان تعاليا :!
"وما الدهرُ إلاّ مِن رُواة قصائدي إذا قلتُ شِعرًا أصبح الدهر راويا"

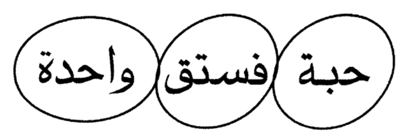
المتنبي: أحن إلى السيف الذي كان شامخا يجيء إليه المجد في الليل ساقيا
حملنا على الأيام والسيف صارم يخامر نحر الأفق للمجد صاديا
تعلقت الأيام في ذيل ثوبه وأدرك في الأيام ما كان راميا

القلعة: ولكنه مازال سيفا مهندا ونجما من الأمجاد يعلو سمائيا
فمن صنع الأمجاد يبقى صنيعه وليس يزيل الدهر ما كان باقيا

المتنبي: تنبأت بالأحزان يا أم إنما وقوفك في وجه الفناء عزائيا
كأني أراك اليوم في حلة الضحى تعيدينني من ذلتي وخرابيا
لأجلك يا أماه لن أبرح العلا ولن تري القلب المخضل شاكيا
خذيني إلى عينيك يا قلعة الهوى أرى فيك تاريخ السيوف المواضيا

القلعة: وقفت وكان الدهر طفلا سعى ليا تربى على مجدي فشب تباهيا
أنا السرُّ في نهر الخلود إذا جرى أنا الفخر حين الفخر يبدو مثاليا
كتبتُ على أحجار صمتي حكايتي وطاف جهات الأرض مجدا ندائيا



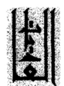


حبة فستق واحدة

أحمد زياد محبك*

على الدرج يكاد يعدو، يصعد درجتين درجتين، وهو يحمل كيس الفستق الحلبي، نصف كيلو من الفستق الحلبي، دفع ثمنه مئة ليرة، هو في أول موسمه، ربما هذه أول مرة ينزل فيها إلى السوق في هذا الموسم، ولكن لا شيء يغلو بالنسبة إليها، سيقعدان في الشرفة، يطلان على حلب، والقلعة تشمخ في وسطها، والبيوت تحيط بها كالكواكب، القلعة مضاءة كالذهب، سيقشر لها حبات الفستق بنفسه، سيضع برؤوس أصابعه الحبة الحمراء الناعمة بين شفتيها، يتحسس الدفء واللدونة، سيضع الحبة الوردية بين أسنانها اللؤلؤية، ستقضم إصبعه، سيعدّان مائدة صغيرة: قليل من الزيت والزعتر، صحن من الجبنة المشللة، قليل من المأمونية التي بقيت من فطور الصباح، سيعدّ المائدة بنفسه، آه، لا بد من صحن صغير فيه المخلل، سيقسم بنفسه قطع مخلل القثاء، وفي صحن آخر بضع حبات من الزيتون وفوقها دبس الرمان والكمُّون والزيت، أي عشاء هذا، لو اشترى حزمة بقدونس لأعد مع قليل من البرغل في دقائق صحن تبُّولة، ولكن لا بأس، لابد أن يكون في الثلاجة صحن صغير فيه بقية من مجدّرة الأرز، وفوقها قليل من البصل المقلي، سيطلّ عليهما القمر من وراء القلعة، لتتألق تحت ضوئه الفضي زهرات الياسمين في العريشة الصغيرة التي تملأ فضاء الشرفة، هي شرفة ضيقة في شقة صغيرة، لكن موقعها جميل، يكفي أنها بجوار جامع الرشيد في شارع الإذاعة، حيث تطل من تلك الهضبة على حلب كلها، كما أطل عليها ذات يوم من الطائرة، فرآها كلها، تجلّت له كليلة القدر، فازداد لها عشقاً، لا شك أن سيف الدولة كان يطل من هذه الهضبة على

* أستاذ الأدب العربي بجامعة حلب - قاص ومسرحيّ.

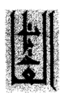


مـروج حلـب وجنائنـها، وإلى جـواره سـيف الدولة، وهو إلى جواره شريكة العمر، هـي من أحب وهـي من اختار، لابد أن تكون قد قطفت بضع زهرات من عريشة الياسمين، ووضعتـها في كـأس، سـيلتقط الزهــرات البيضـاء الناعمــة ويزيــن بهــا شــعرها، سيصنع لها بنفسه عقد يـاسمين يزيـن بـه صدرهــا، وعلــى حافــة الشــرفة ســيضع المسجل، ويشدو لهما صباح فخري: "أنا وحبيبي في جنينة، والورد خيم علينا"، هـي جنينـة المـنزل، لا أجمـل منـها ولا أحلـى، هـي الـدفء والأمـان، والنسـمات الصيفيـة تـترقرق كجـدول شـفاف، والبـدر يزيـده صفـاء، حبـات الفسـتق علـى الأغصـان في الكـرم تتشـقق في ضـوء القمــر، تتفتــح، تضحك، والحب في ضوء القمر يتفتح، لا ينسى حين خـرج مـع أبيـه إلى الكـرم وهـو طفـل، ليلـة جميلـة أمضاهـا في الكـرم مـع أعمامــه وأولاد عمــه، وعنــاقيد الفســتق أثقلت الأغصان حتى تدلت نحـو الأرض، لونها الوردي شهي، هـي حقيقـة تتشـقق، إذا كان قلب الراهب المتزمت العنيـد قـد تفتح للحب تحت ضوء القمر كما في قصة دي موباسـان، فكيف لا يتفتح قلب الفستق ويتشـقق، بـل إنــه يتفتــح، ومــع حفيــف الأغصان تسمع له طقطقات ناعمة، مثل دغدغــات في خصــر أهيــف، وهـــي في المطبخ، تعد الشاي، سيفاجئها من وراء، يدغدغ خاصرتيها، ثم يضمها إليـه، هـي تفضـل سمـاع ميـادة حنـاوي تشـدو بسـاعة زمن، "هي ساعة زمن، عشنا فيها زمن، هـو وأنـا"، سيسـتمعان إلى ميـادة، ثم إلى صباح فخري، نغمات القدود والموشحات تسـري في العـروق تمـازج الـدم تتغلغـل إلى الأعماق، ترتعش له الأوصال، هذه فستقة ناعمـة مثـل أناملك الناعمـة، هــذه حبـة أخرى ناعمة مثل فمـك الصغير الململم.. وهـذه.. وهـذه.. سـيطعمها الحبـات حبـة حبـة، أصدقــاؤه الآن بـدأت سـهرتهم في المقهى علـى الرصيف قبالـة القلعة بجوار خان الشونة، القلعة تطل عليهم بأبراجها الشـامخة مثـل جـدة عجـوز، والنســمات تداعبهم، والنادل يطوف عليهم بالنراجيل والقهوة المرة، وسيقدم لهم من غير شك أطبـاق الفسـتق الحلبي، ولكنـه مـل السـهر معهم، أيام العزوبية انتهت، هنـا الزوجـة والشـقة والشـرفة، وعـدا الأولاد، لا شـك أن النسمات هنا ليست كالنسمات هناك، فالفضـاء هنـاك علـى الرصيـف إلى جـوار القلعة أرحب، ولكنه هنا أكثر حنانـا، هـل يعقـل أن يتركـها تسـهر وحدهـا؟، لم يمـر علـى زواجـهما سـوى ثلاثـة أشـهر، شـهر العسل سيدوم العمر كله، لـن يـأخذه منـها الأصدقـاء، ويبلـغ الطـابق الخـامس، يقـف

هنيهة، يلتقط أنفاسه، يجب ألا يدخل وهو يلهث، يخرج من الكيس حبة فستق، ينزع عنها قشرتها الحمراء، كأنه ينزع ثوب الزفاف، بأصبعيه يشق الفستقة، يفتحها، يخرج اللب الوردي، يضعه بين شفتيه، لن يفتح الباب بالمفتاح، سيقرع الجرس، لتفتح هي الباب، وهي تفتح له الباب سيزقها حبة الفستق، ويقرع الجرس مرتين، ثلاث مرات، وما من مجيب، يضع إصبعه على الجرس ولا يكاد يرفعها، يرمي حبة الفستق، يضع كيس الفستق على الأرض، ما الذي حصل؟ هل وقعت فأغمي عليها؟ هل اقتحم الشقة لص فسرقها أساورها وقتلها؟ كم تمنى لو يسكن في غرفة صغيرة في دار أمه وأبيه، ولكنها أبت إلا أن تسكن في شقة صغيرة مستقلة، وبأصابع قلقة مضطربة، يخرج المفتاح من جيبه، يعالج الباب، يفتحه ويدخل، هل يراها على أرض المطبخ مغمى عليها؟ هل يراها في سريرها والدم ينزف من عنقها؟ هل ثمة لص أو قاتل؟ يستعد لمجابهة أي خطر، ينادي.. ينادي.. ينادي.. وما من مجيب، يسرع إلى المطبخ، يتناول سكينا، يحكم عليها قبضته، يجد ورقة على المائدة كتبت عليها: "ذهبت إلى أختي في السابعة، لن أتأخر" يرسل زفرة طويلة، يرمي السكين، ينظر إلى ساعة يده، هي السابعة والربع، يمضي إلى الشرفة، يقعد وحده على كرسي منفرد، لا مائدة أمامه، ولا مسجل ولا صباح فخري، يلقي نظرة على قلعة حلب وعلى المدينة، لا يعرف لماذا الأضواء هذه الليلة قليلة، ثمة عتمة، لا نسمة هواء، حتى عريشة الياسمين لم تتفتح فيها سوى بضع ياسمينات صغيرة، يولي ظهره إلى القلعة، وجهه إلى المطبخ، يحس بالاختناق، يرقب باب الدار، ينتظر إطلالتها عليه، ليزقها حبات الفستق، وحين تطل بعد عشر ساعات، بعد سنة، بعد دهر، يحس بحركة المفتاح في الباب، ينهض، يمد يده في كيس الفستق، تصطدم بقعره، أصابعه تبحث، تلوب، ينظر إلى كومة القشر التي تملأ الصحن على المنضدة الصغيرة... يسرع إليها، تنظر إلى ساعة يدها، تهمس:

- حبيبي سامحني، لم أتأخر، ساعة، ساعة ونصف فقط، الآن الثامنة والنصف، اعذرني، أنا..

ويضع بين شفتيها الحبة الوحيدة المتبقية من كيس الفستق.□



تقاليد الكناسة الحلبية في (كتاب اللبّاد)

تميم قاسمو*

يذكر خير الدين الأسدي في موسوعته أن «كتاب اللباد» اسم لكتاب وهمي لا وجود له، يريدون به مجموعة اعتقادات النساء الخرافية، ويزعمون أنه كان سفرا ضخما ثم احترق وبقي منه صفحة واحدة سطت عليها الأرضه «النمل» وبقي منها جزء ما في صدور «النسوان»[1].

يعتمد "كتاب اللباد" على الترغيب والترهيب من أجل غرس اعتقاداته في عقول النساء منذ الطفولة المبكرة، ويندر أن يفسر دواعي تعاليمه بالرغم من أن معظمها تبدو للفاحص عملية ومنطقية.

لماذا الحديث عن (كتاب اللباد):

على الصعيد الواقعي استطاع "كتاب اللباد" بنجاح واضح أن يفرض تعاليمه على المرأة لكنه -مثل أي قانون متشدد- سلاح ذو حدين، قد يراه بعض الناس ضرورة لتنظيم الجماعة ويجدون فيه فوائد تفوق جوانبه السلبية، بينما يراه آخرون مهدما لشخصية الفرد وتكوينها الاجتماعي بإتباعه منهج التهديد في فرض تعاليمه واستهانته بعقل المرأة التي هي المؤثر الرئيسي في تربية الجيل الجديد. وهو تأثير يمتد إلى الفرد الحلبي ولا يقتصر على المرأة الحلبية وحسب.

يقول معارضو منهج "كتاب اللباد" أنه يؤسس لعلاقة عدائية من الفرد والجماعة مبنية على الخوف والشك، ويحوله إلى

---

* مهندس مدني، باحث في التراث الشفهي.

١- مادة "كتاب اللباد" موسوعة حلب المقارنة - خير الدين الأسدي - ج ٦ . ص ٤٦٣.

كائن غير اجتماعي لا يشعر بالانتماء أو بالمسؤولية تجاه الجماعة وهما أساس تطور المجتمع، ويضربون مثلا على ذلك بأن الفرد الذي ما زال يعيش في أجواء اجتماعية متأثرة بكتاب اللباد يلتزم بالنظافة لكن التزامه يتوقف عند باب بيته أو محله أو في المكان الذي تختلط فيه الأوراق فلا يستطيع أحد أن ينسب إليه أنه من خرق القواعد، ويرون أن الفرد الذي يمارس سلوكا معاكسا للتعاليم المفروضة عليه إذا أمن الرقيب إنما يمارس فعلا تحرريا قد يقوم به أحيانا بتلذذ المنتقم.

ولعل استعراض تعاليم "كتاب اللباد" المتعلقة بالكناسة وتحليل المنهج التربوي الذي تستخدمه يمكن أن يساعدها في فهم وجهتي النظر وبالتالي الحكم عليهما.

حلب والغبار والمرأة:

حلب مدينة جافة الصيف، تحمل الرياح إليها الغبار من محيطها المترب وتلقيه عليها، فتغطيها بملاءة من طحين وللمرأة الحلبية معركة يومية مع الغبار، فهي مطالبة دوما بأن تمثل نموذج المرأة الصالحة، ومن أهم مقوماته أن تكون، نظيفة الجسد طيبة الرائحة. وأن يكون أيضا بيتها نظيفا وهو التزام تؤديه لزوجها والمجتمع معا.

وتظهر العلاقة بين المرأة ونظافة البيت في التعابير والأوصاف التي تستخدمها العامية، فعندما يقولون في حلب: ***"فلانة نظيفة"*** يتبادر إلى الذهن فورا أن بيتها نظيف، ولا يفهم أنها نظيفة في شخصها بالذات. وتتفنن التعابير العامية في وصف البيت النظيف، وتقرنه دوما بصاحبته فتقول ***"فلانة بيتا عمبضوي ضوي"*** أو ***"عمبرقص من النضافة"*** وتستخدم لذلك كناية لطيفة ***"فلانة، بيتا، كبي العسل والحسيه"***[1].

يقول الأستاذ قدري دلال في محاضرة ألقاها في جمعية العاديات: أن أسوأ صفة يمكن أن توصف بها امرأة أن يقال عنها ***"فلانة رعنة"*** أي قذرة المنزل وعكس تلك الصفة أن تكون ***"متقنة"*** ومصدرها الإتقان

ويأتي الغبار ليخرب هذه الصورة البراقة، فيكسر اللمعان ويشتته، إنه كائن مراوغ يتسلل خفية فلا يمكن رده أو حجبه، وهو شاهد لا مجال لرد شهادته أو الطعن فيها، شاهد على أن المرأة التي عليها أن تبقى منشغلة بشأن بيتها قد غفلت عنه.

ومعركة المرأة مع الغبار تبدأ منذ الصبا، وأول مهمة توكلها الأم للفتاة

١- اسكبي العسل على أرض البيت والحسيه.

الناشئة هي مسح الغبار أو "*الغبرة*" كما تسميها العامية، وقد يكون السبب في ذلك أنها مهمة لا تحتاج إلى جهد عضلي كبير، وهي مهمة من السهل مراقبتها لمعرفة ما إذا كانت الفتاة تعمل بإخلاص أم أنها تغش "*وتضرب عونطة*". وعندما يتقدم العمر بالمرأة تتوقف أو تكاد عن معظم نشاطاتها المنزلية لكنها تبقى حتى الرمق الأخير متمسكة بمهمة "*مسح الغبرة*".

كانت المعركة مع الغبار تدور في ميادين عدة، في أرض الحوش، وعلى أسطح الأواني وأوجه المفارش والسجاجيد، وبأسلحة مختلفة أهونها المسح، فيما يأتي "*نفض الغبرة*" والكناسة والشطف بالماء في مراحل متعاقبة.

لقد كتب على المرأة أن تحارب في معركة لا يمكن أن تنتهي بالضربة القاضية، وأن يكون إنجازها أن تزيل الغبار في كل يوم، لتراه متربعا في نفس الأمكنة عندما يولد نهار جديد، فكأنما هي "*سيزيف*" الذي حكمت عليه آلهة الميثولوجيا اليونانية أن يحمل على كاهله صخرة يصعد بها إلى قمة الجبل لتهوي متدحرجة إلى السفح فيحملها إلى القمة من جديد وهكذا إلى الأبد.

تقاليد (الكناسة) في كتاب اللباد:

عني "كتاب اللباد" الحلبي بأن يغرس في ذهن الفتاة، امرأة المستقبل، أهمية الحرب على الغبار باعتبارها طقسا يوميا لا بد منه، وكان الكتاب يلجأ كعادته إلى وسيلته التربوية المفضلة، الوعد والوعيد.

يدغدغ الكتاب أحلام الفتاة الناشئة بالزواج فيضع في روعها أنه "*إذا داست البنت عالمكنسة بجيا خطابين*" [1]، والدوس على المكنسة أمر متوقع عندما تبدأ الفتاة بالكناسة قبل أن تطول خطوتها لتتناسب مع طول المكنسة المصنوعة لتناسب حجم البالغين.

وهنا تكمن عبقرية "كتاب اللباد" في تحويل ما تعتبره الفتاة الصغيرة فشلا ذريعا أو إساءة تخشى عقوبتها إلى بشرى بأنها ستكون عما قريب ربة لمنزل ومحط رعاية فارس الأحلام المنشود.

ومن ناحية أخرى يتوعد "الكتاب" الفتاة الخرقاء أو المهملة إذا قصرت في واجب الكناسة أو نفذته دون اعتناء "*إذا كنست البنت البيت وما نضفتو كويس بجيا جوز أقرع*".

ونلاحظ أن مدار المكافأة أو العقاب هو دوما الرجل، وهو يبقى حاضرا في

١- مادة مكنسة: موسوعة حلب المقارنة - خير الدين الأسدي - ج ٧ . ص ١٨٥.

"كتاب اللباد" كل مرة يرد فيها ذكر الكناسة.

فالكتاب ينذر المرأة التي تكنس بيتها بالمقلوب أي ***"من برا لجوا"*** فيقول ***"المرا لازم ما تكنس البيت بالمقلوب حتى ما يصير بالبيت شرور"*** ورأس الشرور كما هو معروف الخلاف مع الرجل. كما أن الكتاب يوصي ***"لازم المرا ما تكنس البيت يوم سفر جوزا حتى ما يطول غيابو"***. وهنا لا بد من وقفة تأمل، "فالكتاب" يقدم تعاليم عملية تماما لكنه يصوغها في قالب تهديدي بعيد عن المنطق، فما من اثنين يختلفان في أن تكنيس البيت بالمقلوب يؤدي إلى اتساخه أكثر من نظافته، أما عدم قيام المرأة بواجب الكناسة يوم سفر الزوج فهو عطلة يمنحها "الكتاب" للزوجة فترتاح من التعب الذي تكبدته في تحضير أغراض الزوج و***"زوادته"***، والكتاب يورد لذلك تبريرا لطيفا ليس لأحد أن يعارضه، خاصة من معسكر أهل الزوج الذين يراقبون أداءها أثناء غيابه. وإذا ما اتفقنا على أن من وضع تعاليم "كتاب اللباد" هن النسوة، فإن المرأة التي اخترعت هذا الفصل المريح من فصول الكتاب وبررته بذكاء تستحق عليه تحية خاصة.

كان يتوجب على المرأة -ومازال- أن تنتهي من واجباتها المنزلية نهارا قبل قدوم الرجل، ويهدد "الكتاب" من تعصاه بأن ***"اللي بيكنس في الليل بيكنس رزقو"*** أو ***"اللي بيكنس بالليل بيقلع الملايكة"***. أما إذا اضطرت المرأة إلى خرق القاعدة والكناسة ليلا فإن "الكتاب" يوجهها إلى ما يلزم عمله ***"لازم تحرقي شوي من المكنسة تما يموت حدا"*** فياله من فداء عجيب!

ويخشى "الكتاب" بحاسته الاقتصادية من أن تغالي المرأة في الإحراق فتصل النار إلى يد المكنسة فتتلف فيضع حدا لذلك بقوله ***"إذا انحرقت قرمة المكنسة بيموت صاحب البيت"***.

ويظهر الارتباط الوجودي بين الرجل وقرمة المكنسة مرة أخرى في طقس خرافي تمارسه المرأة عندما يطول غياب زوجها، حيث يوجهها "كتاب اللباد" إلى أن توقف المكنسة على قبضتها ***"قرمتها"*** وتغرس فيها دبابيس وتقرأ التعويذة التالية: ***"تحتك عود وفوقك عود، لا يجيك صبر ولا قعود، إن كنت قاعد يوقفوك، وإن كنت ماشي يركضوك"***، أما الجنود الذين تستفزهم المرأة لجلب الرجل فهم بلا ريب العفاريت.

ولا يبخل كتاب اللباد على المرأة بوصفة عجيبة للريجيم تلعب فيها المكنسة دورا رئيسيا، ولكن أي مكنسة! إنها ***"مكنسة الخارج"*** (المرحاض) وهي مكنسة خشنة غليظة الألياف تستخدم في تنظيف



المرحاض ولا تخرج منه، يقول الكتاب: '***إذا أرادت السمينة تضعف، لازم تدخل عالخارج يوم الجمعة وقت الأذان وتكنس حالا بالمكنسة فيه، وما بصير تتأخر كتير تما تضعف كتير***"، ونلاحظ بالرغم من سذاجة هذه الوصفة وطرافتها أنها تحوي على أمرين صحيحين الأول أن توقيتها يضمن خلو البيت من الرجال، والثاني أن القرف الذي ينتاب المرأة وهي تمرر تلك المكنسة القذرة على جسدها كفيل بإلغاء شهيتها لأسابيع وليس لأيام.

ماذا تبقى من (كتاب اللباد) في الواقع والأنفس؟

ساهم "كتاب اللباد" في تشكيل شخصية المرأة الحلبية، كما وجه بشكل مباشر سلوكها اليومي، فاتصفت منذ القدم بعنايتها الشديدة بنظافة منزلها وترتيبه..

لكن "الكتاب" استخدم منهجا مبنسيا على الوعد والوعيد، بل على الوعيد أساسا دون أن يبرر تعليماته بفائدتها العملية سيؤسس لعقل واع يبني قناعاته على الحقائق الملموسة والخبرات الواضحة.

وهذا يدفعنا إلى الظن بأن عناية المرأة الحلبية بنظافة منزلها لا تعود إلى قناعتها بفائدة النظافة فحسب، بل إنها ترجع في جزء منها إلى الخشية من أن تقع فريسة لألسن الناس التي لا ترحم. وقد كانت الأمهات وما زلن يحذرن البنات من أن يخبئن حصيلة الكناسة تحت طرف الحصيرة أو السجادة، أو أن يجعلنها خلف درف الأبواب، فقد تتصنع إحدى الخطابات أو الزائرات التعثر لترى ما أخفي. وفي ذلك يقول المثل "***لا تطلعي على طولا ولوحة خصرا، طلعي تحت حصرا***"[1]، ومازال مجيء ضيوف إلى المنزل يفرض حالة طوارئ تتطلب تنظيف وترتيب كل ما يمكن أن تقع عليه عينا الضيف، والأم تقول لبناتها وهي تحثهن على ذلك "***هلق، إذا دخل علينا حدا، إش بدو يقول عنا***".

ولقد نتج عن منهج "كتاب اللباد" آثار اجتماعية ونفسية عديدة سنحاول أن نرصد بعضها اعتمادا على شواهد من الواقع.

فقد ساد نموذج من الرجال يرى في الاستهانة بقواعد النظافة مظهرا رجوليا باعتبار أنها سلوك أنثوي أساسا، واستثمر بعض الرجال خوف المرأة من التقصير فيما يطلبه المجتمع منها، فمارسوا في

١- "لا تنظري إلى طولها وتمايل خصرها، انظري إلى ما تحت حصيرتها" وردت في الموسوعة ج٢ . ص٢٣٥.

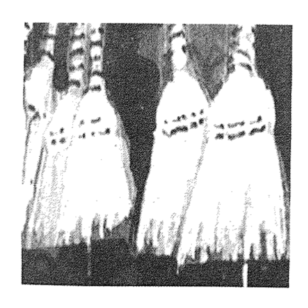
بيوتهم دور الرقيب الحسيب، وهناك صورة نمطية لرجال يدخل واحدهم منزله ويمرر سبابته على أقرب سطح صقيل ثم يشهرها في وجه زوجته وقد علق بها شيء من الغبار ويصيح مستنكرا: *هي نضافة؟!*.

وفي نفس الوقت، فإن انهماك المرأة في معركتها الخاسرة دوما مع الغبار كان يحرمها من متعة الإحساس بالإنجاز، مما يسمح للرجل بأن يستهين بما تبذله المرأة من جهد. وتحمل إلينا العامية تعبيرا فريدا في بلاغته عندما تشكو المرأة لزوجها تعب اليوم الطويل فتقول *"طول النهار راسي مكنسة وايدي مجرفة"*، حيث تبلغ العلاقة بين المرأة والمكنسة درجة من العمق والألفة لا تجد المرأة معها غضاضة في أن تشبه نفسها بالمكنسة، ووجه الشبه كما هو واضح شعر المرأة المتدلي أرضا كألياف المكنسة، فيالها من صورة تذل المرأة فيها شعرها مصدر عزها وفخرها من أجل أن تظفر بتعاطف الزوج الجاحد.

وليس غريبا بعد ذلك أن نجد وسواس النظافة -وهو مرض نفسي معروف- منتشرا بين نسوة حلب، لكنه لا يعتبر فيها مرضا وإنما خصلة طريفة تنظر إليها الجماعة بشيء من التفهم والتقدير. ويردد المثل الحلبي *"كل دوسة وإلا حوسة"* والحوسة عندهم تعني غسل أرض *"الحوش"* وهذا المثل يكفي للتعبير عن الأهمية التي تبلغ حد الوسوسة عند بعض النساء، وأعرف سيدة يروى عنها أنها كانت تنشر الغسيل وتراقبه جالسة في أرض *"الحوش"* حتى ينشف خوفا من أن يلمسه أحد.

عود على بدء:

إذا اعتبرنا أن "كتاب اللباد" ينتمي إلى عصر مضى وانقضى جاز لنا أن نقرأه مستمتعين بطرافة تعليماته وحسب، لكن المشكلة هي أن عواقب منهجه التعليمي ما زالت فاعلة بشكل أو بآخر في قطاعات اجتماعية واسعة بالرغم من أن تعاليمه قد اختفت من التداول اللفظي، ولا يقتصر تأثيره على الأوساط غير المتعلمة بل يتعداها إلى أوساط لم يستطع التعليم أن يطور فيها مفاهيم الانتماء إلى المجتمع ويغرس فيها النظرة الموضوعية للأمور. ■



الناعورة والأسطورة

إسماعيل نوفل*

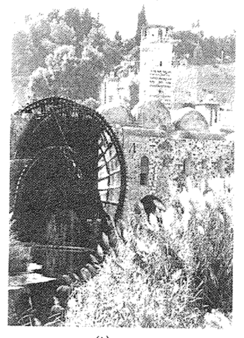
1 الناعورة هي تلك الآلة الخشبية المائية التي لا تتوقف عن الدوران ليلاً ونهاراً والتي اشتقت اسمها من نعيرها وهو صوتها.

وتنتشر النواعير في محافظة حماه بين الرستن وشيزر ويبلغ عددها ١١٩ ناعورة منها /١٩/ ناعورة في مدينة حماه وثمانية وأربعون ناعورة تتوضع بين حماه وشيزر، واثنتان وخمسون ناعورة بين الرستن وحماه. وحتى الأمس القريب كانت حماه بمن فيها وما فيها تشرب من مياه النواعير. التي تصل إلى البساتين والحدائق والخانات والحمامات والمساجد والمنازل والدور وإلى كل مرافق الحياة في المدينة.

وتتوزع نواعير حماه على خمس لوحات طبيعية نادرة الوجود والجمال في العالم كله.

ففي شرقي المدينة تقع مجموعة الأربع نواعير (نواعير البشريات) البشرية الكبرى والبشرية الصغرى والعثمانيتان التوأم وهما الأصغر.

وفي وسط المدينة (ساحة العاصي) تقع المجموعة الثانية والتي تضم أربعة نواعير، هي ناعورة الجسرية وناعورة المأمورية وناعورتين صغيرتين هما المؤيدية والعثمانية.



وعند جسر بيب[1]. الشيخ تقع ناعورة الجعبرية والطيارة والصهيونية وناعورة الباز.

أما اللوحة الرابعة فتقع في محلة باب الجسر (شمالي قلعة حماه) وتضم ناعورة الدوالك وناعورة الخضر وناعورة الدهشة (ناعورة الملك أبي الفداء).

---

* باحث في تاريخ حماه وآثارها.

١- البيب هو المجرى الذي تغطس فيه قواديس الناعورة.

وتقع اللوحة الأخيرة في الجانب الغربي من المدينة في منطقة باب النهر حيث ناعورة المحمدية وهي الأكبر في حماه وناعورة المقصف (القاق) صغرى النواعير وكانت هناك ناعورتان اندثرتا منذ ربع قرن وهما ناعورة العونية (ناعورة الدباغة) وناعورة البركة.

ولقد تكفل الخيال الشعبي في حماه بإبداع أساطير طريفة عن هذه النواعير فاختلق العفاريت وزاوجها وجعل لها بنين وبنات وعاش عفريت النواعير في مخيلة الأطفال وفي تفكير الكبار.

تروي الأسطورة إن عفريت النواعير يقف فيضع إحدى رجليه على ناعورة الجسرية والأخرى على ناعورة المأمورية. فإذا أراد أن ينام وضع رأسه على ناعورة المحمدية وأسند جسده على ناعورة الجعبرية وعلى ناعورة الخضر.

ولما تزوج العفريت أسكن زوجته العفريتة نهر العاصي وأعطاها لقب عفريتة العاصي، وعندما رزق بالولد الأول أسكنه ناعورة البشرية الكبرى. وأسكن الثاني ناعورة البشرية الصغرى ولما رزق بتوأم من الإناث أسكنهما العثمانيتين التوأم ويبدو أنه توقف عن الإنجاب عندما ضاق المكان ولم يعد في النواعير القريبة متسع، وكان العفريت وعائلته يتغذون على دم ولحم البشر وكان الحمويون يقدمون قرباناً للعفريت كل عام وهو عبارة عن جدي ذكر (تيس) له قرنان وهما قرنا الوفرة كما في كل الأساطير القديمة.

أما السبب في أن القربان جدي فلأن الماعز هي التي كانت تعيش في حماه على ضفاف العاصي شديدة الانحدار المليئة بالنبات الطفيلي فيما تعيش الأغنام في بادية الشام المنبسطة.

وكان أهالي حماه يلقون مشيمة الطفل في مياه العاصي في منطقة جسر المراكب بين ناعورتي الجسرية والمأمورية أو عند ناعورة المحمدية لتكون المشيمة حرزاً للطفل من الموت غرقاً فيما يشبه فداء مجتزءاً تنال فيه العفاريت جزءاً من الجسد فتعف عن الكل، أو تلقى المشيمة في بيب الناعورة لأن الحمويين يعتقدون أن غرقى بيب الناعورة وهم الأكثر عددا يصبحون من نصيب العفريت الذي لا بد من إرضائه مقدماً.

أما إذا غرق إنسان في مياه النهر بعيداً عن بيب الناعورة فالأسطورة تفسر ذلك بأن العفريت قد تخاصم مع زوجته فغادرت الزوجة و(حردت) فأكلت وحدها.

وتمضي الأسطورة فتفسر الغرق في منطقة (البشريات) بأن العفريت في ذلك اليوم لم يطعم أولاده فشردوا إلى



البشريات حيث التقطوا رزقهم بأنفسهم.

وكان من عادة أهل حماه في فصل الصيف النوم على أسطحة المنازل وفي ساحات البيوت، على صوت عنين النواعير المتردد في أرجاء المدينة كافة. فإذا تغير صوت العنين عن المعتاد ليلاً قالت الأسطورة أن العفريت قد استيقظ يطلب دماً. ويحسب الحمويون لذلك حساباً ويخافون على أولادهم وعلى أنفسهم ويمتنعون عن السباحة في نهر العاصي في اليوم التالي، ويحظرون على أولادهم الاقتراب من ضفافه حتى ينجلي الأمر في الليلة التالية بعودة صوت عنين النواعير إلى طبيعته المعتادة أو قد يغرق أحد في مياه العاصي فيقولون أن العفريت قد نال بغيته واكتفى أما إذا استمر صوت النواعير منذراً فلا بد من تقديم القربان المعتاد، تيساً بقرنين.

قلعة حماه

1- البشرية الكبرى
2- البشرية الصغرى
3- العثمانية
4- العثمانية
5- الجسرية
6- المأمورية
7- المؤيدية
8- العثمانية
9- الجعبرية الكبرى
10- الجعبرية الوسطى
11- الصهيونية
12- الكيلانية (الباز)
13- الخضر
14- الحوالك
15- الدهشة
16- المحمدية
17- المقصف
18- العونية
19- البركة

N

واليوم تذوب الأسطورة تحت شمس المعرفة وتزول، فيما تبقى النواعير رمزاً لعبقرية الإنسان في استخدام مثالي للطاقة المتجددة التي لا تلوث ولا تدمر. ■

أشعار الترقيص عند الأمهات

عمر الدقاق*

إن أشعار الترقيص، على قلتها، أو قلة ما وصل إلينا منها من تراثنا السالف، أخذت تختفي أو تتضاءل على مر السنين، بعد تألقها زمنا غير مديد في أواخر العصر الجاهلي ثم في صدر الإسلام وأوائل عصر بني أمية. فلم تشكل حيزا ذا شأن في كتب الأدب والأخبار. حتى بتنا لا نقع بعد ذلك إلا على النزر اليسير منها. ومرد هذا في رأينا إلى أن العصبية القبلية أخذت تفقد حدتها، وأخذ يتوارى معها شعر الفخر وأيضا شعر الترقيص اللذان يعتمدان غالبا على تلك العصبية ويستمدان النسغ منها.

ومع ذلك فإن ظاهرة ترقيص الأمهات لأولادهن، مع ما يصاحبها من أشعار وعبارات، وأداء وألحان وحركات وإشارات، بقيت حية ماثلة على نحو من الأنحاء، يتوارثها الناس جيلا بعد جيل، باعتبارها نزوعا اجتماعيا بعيد الغور في ضمير الأمة. إذ التقاليد أطول المعنويات عمرا، وأرسخها في حياة الأمم. والعرب أمة محافظة، نزوعة إلى الماضي، متشبثة بالجذور.

والنهضة العربية الحديثة كان قوامها حركة انبعاث وإحياء على كل صعيد. وهكذا حافظ الآباء والأمهات على عادة ترقيص أولادهم، توارثوها دون تغيير جوهري في مضمون العبارات والأشعار، إذ الولد في كل زمان ومكان قرة عين وفلذة كبد، وهو الأعز والأحب في قلوب أبويه.

أما لغة التعبير في أشعار الترقيص الحديثة فكان لها شأن آخر إذ طرأت عليها تغيرات شتى مع تغير الأحوال، وتعاقب العصور، وما استتبع ذلك من تحولات في المجتمعات العربية، وبروز اللهجات المحلية. فقد غدا لكل بلد ملامح ذاتية في كلامه وطرق أدائه، من مثل ما بتنا نسمعه من أشعار وأزجال وحكايات وأمثال، لدى أهل الشام أو مصر أو

* عميد كلية الآداب بجامعة حلب سابقا.

العراق وسائر مجتمعات الوطن العربي.

على أن في هذا التنوع ثراء، أو هو التنوع داخل إطار الوحدة، وحدة الأصل والجذور، ووحدة التراث والشعور. وإذا كان العرب السالفون قد أحسنوا صنعا بتناقل هذا الجنس الادبي وروايته، ومن ثم تدوينه وحفظه، فإن المعاصرين لم يولوا الترقيصات وما شابهها من الهنهونات والأدعويات والترنيمات والزغرودات والأهزوجات اهتماما كبيرا. وقد أعرض كثير من الدارسين عن تناول هذا النتاج الطريف ولم يمنحوه الاحترام اللازم، لأنه أدخل في الأدب الشعبي الذي لا يرقى -كما يقولون- إلى منزلة الأدب الرفيع. على أن هذه النظرة القاصرة أخذت تنحسر لتتيح لأشعار الترقيص وسائر أنماط الأدب المسموع حيزا متناميا في ساحة التدوين والبحث، ولا سيما في مصر والشام والعراق. وعلى هذا الصعيد تتجلى أهمية العمل الجليل المتميز الذي خلفه العلامة خير الدين الأسدي، والذي يعد رائدا سابقا لعصره في هذا المجال، في تأليفه (موسوعة حلب المقارنة) ولا بد مع ذلك من المضي قدما على هذا الصعيد، والتصدي إلى جمع هذا النتاج المشتت الذي ما زال جانب منه حيا في ذاكرة الناس.

إنه إرث مسموع ومتوارث يجدر صونه وتدوينه قبل أن يغوص في لجة النسيان. وهذا مطلب قطري أو إقليمي في كل بلد عربي، عسى أن يكون من ذلك كله حديقة أدبية مختلفة الألوان والأشكال، أو مائدة متنوعة المذاقات والطعوم.

ومن هنا يبدو عسيرا علينا، وعلى أي باحث في هذا الصدد أن يخرج بدراسة متكاملة شاملة عن أشعار الترقيص في المجتمعات العربية المعاصرة، ولا سيما أن معظم هذه الأشعار ما زالت منطوقة، وبعيدة عن متناول الدارسين. ولكن ما لا يدرك كله قد يدرك جله. وأكثر ما يتيسر لنا من هذه النصوص مستمد من شفاه الناس ومن بعض المصنفات والمؤلفات القليلة في هذا المجال. ومعظمه يتصل بما تتداوله الأمهات في حلب وسائر بلاد الشام، ثم بعض ما آل إلينا من منطقة حوض الفرات وما يليها من مدينة الموصل وغربي العراق، والقليل مما نقع عليه في ضفاف النيل.

الإنجاب في حياة كل ذي روح حدث كوني أزلي إنه تحقيق للذات واستمرار للوجود. وهو يكتسب عند الإنسان بالإضافة إلى ذلك أهمية بالغة على الصعيد الاجتماعي ومنذ فجر الإنسانية كانت المرأة المنجبة تحظى بأرفع منزلة وأجل احترام. حتى أنها ارتقت لدى بعض الأقوام الغابرة إلى مقام التقديس، بل العبادة.



ومن المعهود، منذ القدم وإلى اليوم أن العرب وسائر المسلمين إنما يتلهفون على الحظوة بالولد، ويجدون فيه زينة الحياة الدنيا وسعادتها. وعندما تتزوج الفتاة في ربوع الشرق لا يلبث سكان الحارة، ولا سيما نسوة الحي في أيامنا هذه أن يتساءلن بعد حين قصير، ويكثير من الفضول، وهن يتهامسن: "أما آن لهذه الجارة أن تحبل.." وإذا انقضت على هذه الحال بضعة أشهر يكثر الكلام ويعلو اللغط، هذه تقول: منه، وتلك تقول: منها.. والزوجة اليافعة بين هؤلاء وأولئك فريسة للقلق والأسى تتأرجح بين مد الأمل وجزر اليأس.

ولكن حين يأذن الله بالفرج تخرس الألسن وتتلاشى الأقاويل. ولكنها لا تلبث أن تعاود ما كانت فيه بعد أيام، وذلك بصدد المولود المرتقب، أذكر هو أم أنثى. وكل امرأة تتوقع ما شاء لها التوقع. على أن القول الفصل سيكون عن قريب عند القابلة، وربما كانت هذه القابلة مجربة محنكة وميمونة الطالع، فلا يولد على يدها كما يشاع إلا الصبيان. هذه أم الكنة واقفة بجانب ابنتها الحامل وهي تنادي ربها، ويداها مرفوعتان إلى السماء:

"يا قريب الفرج، يا عالي بلا درج، افرجها على بنتي، واجعلها ساعة خفيفة"

حتى إذا حانت ساعة الوضع، وجاء المولود ذكرا انطلق صوت أم الولادة من جديد وهي ترقص الوافد العزيز[1]:

بشرتني القابلة وقالت صبي
ريت هديك القابلة تزور النبي

أما إذا جاء المولود بنتا فيكون كمد، وتكون حسرة، وحينئذ تقول أم الولادة[2]:

بشرتني القابلة وقالت بنيه
ريت هديك القابلة تلدغها حيه

كما تقول أخرى متبرمة ساخطة[3]:

لما قالوا جابت بنت
كانت لحظة مثل الزفت

وتتكرر المواقف نفسها في كل حين وعلى هذا الغرار كلما حملت أم وأوشكت على الوضع. وحين تأزف اللحظة الحاسمة، والقلوب واجفة، والعيون شاخصة، تطل الوليدة الأنثى على الدنيا، ويقع المقدور. وإذ ذاك يكون صمت ويكون كمد، كما تكون حسرة ويكون أسف. وقد يحدث أن تقطع الجدة بغتة ذلك السكون المطبق، وهي تندب حظها وحظ ابنها أو ابنتها من خلال أشطر قليلة مفعمة بالأسى والمرارة، وبقدر من الحزن وخيبة الأمل[4]:

لما قالوا لي بنية انهد حيلي[5] عليي

١- أشعار الترقيص عند العرب، سعيد الديوجي، ٥٩-٦٠، الموصل ١٩٦٧.

٢- المرجع نفسه.

٣- من المرويات الشائعة في سورية ومصر، مع فارق لفظي يسير.

٤- من المرويات المسموعة في المجتمع الحلبي، عن الباحثة نجوى عثمان

٥- حيلي أي عزمي وقوتي، والكلمة هي حالي وفق ظاهرة الإمالة في كثير من الألفاظ السائدة في لهجة أهالي حلب.

ولا تكتفي الجدة بما قالت بل نراها في البيت التالي تبخس المولودة حقها في العدل والإنصاف، وبقدر كبير من الإساءة والامتهان:

جابوا لي البيض بقشره
وعوض السمن ميه

أما حين تأتي ضربة الحظ، وينعم القوم بمولود ذكر تنعكس الصورة وتنقلب الأمور رأسا على عقب. وعندئذ تحدث الجلبة، وتعم الفرحة كما تزف البشائر وتنطلق الزغاريد بملء الحناجر. وفي هذا الغمار من البهجة والحبور، يعلو صوت الجدة بسعادة غامرة وأنفاس فائرة، وكأنها ردت إلى عنفوان شبابها[1]:

لما قالوا لي صبي شد حيلي علي
وجابوا لي كنافة بفستق
وامتلا البيت علي

وحين تولد الأنثى تستسلم الأم لقدرها، وترضى بما قسم الله لها. ومع ذلك تتبدى الغصة على لسانها، فتميز بين الوليدين، الذكر والأنثى من خلال مقارنة طريفة وتشبيهات جميلة بينهما فحين يطل الصبي المولود على الدنيا يغدو -على صغر حجمه- ذا منزلة وشأن ويحظى بكل ترحيب وتأهيل:

قدو قد الفارة وصيتو عبا الحارة

أما البنت -كان الله بعونها- فقدومها بين الأهل تاعس، حيث لا أهلا بها ولا سهلا:

قدها قد المخدة وسوت في بيتنا كمدة[2]

ومن التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة أن الأب والأم لا تكتمل شخصيتهما وتتوطد منزلتهما إلا عندما ينجبان مولودا ذكرا. وعلى التو تقول الأم بارتياح بالغ[3]:

لما إجا هالولد انشد ضهري وانسند

وإذ ذاك يشعر الوالدان بالثقة وتأخذهما العزة، حتى أن اسمهما يتغير منذ هذا اليوم، بل قبله أحيانا استباقا إلى إطلاق اسم الجد الذي يسري عادة إلى الحفيد، إنهما الآن مثلا: أبو أحمد وأم أحمد.. هذا هو الحال السائد بين الناس، حيث يغدو من المعهود في الموروث الاجتماعي لدى أمم الشرق بوجه عام أن للذكورة المقام الأعلى. وما زال شائعا في بعض الأوساط أن (العتبة تحزن أربعين يوما عند ولادة البنت)، و"وأن البنات همن للمات...".

ريحانة القلوب:

من المعهود في حياة العرب قديما وقبل الإسلام أن العربي كان يسعد أيما سعادة حين يقيض له غلام ينجب وفرس تنتج،

١- من المرويات الشفوية المتداولة، (الباحثة نجوى عثمان).

٢- من المرويات الشفوية المتداولة، (الباحثة نجوى عثمان).

٣- أشعار الترقيص عند العرب، سعيد الديوجي، ٧٧-٨٢، وهذا النص وما يليه كلاهما مستمد من مجتمع مدينة الموصل ومنطقة غربي العراق.

لما لهذين الكائنين من أثر وفضل في عيشهم اليومي وفي منزلتهم الاجتماعية، حيث تسود الأعراف القبلية كل مناحي الحياة.

وأكثر الأعراب في بواديهم لم يكونوا يرحبون بمولد البنات. وقد تصدى الإسلام في تعاليمه السمحة، ومن خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الشريفة لهذه الظاهرة الاجتماعية السيئة في جملة تصديه لظواهر كثيرة ضارة في حياة العرب. وقد أفلح الإسلام في محو الكثير من هذه المفاهيم السلبية والعادات المقيتة، ومع ذلك ظل بعض الناس يحتفظون في قرارة نفوسهم بالعديد من الموروثات الجاهلية. وقد تبدى ذلك منذ عهد الرسول ﷺ وفي حياته ولدى صحابته. فحين بشر محمد ﷺ بولادة فاطمة، نظر في وجوه أصحابه، فرأى الكراهة فيهم فقال[1]: "مالكم، ريحانة أشمها، ورزقها على الله" وكان محمد ﷺ يصلي وهو حامل أمامه حفيدته، وهي بنت ابنته زينب. فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظل كثيرون، وعلى مر العصور على موقفهم الجائر ونظرتهم الدونية تجاه الابنة، بل تجاه المرأة أو الأنثى على نحو أعم.

غير أن كائنا بشريا وحيدا في هذا الصدد اتسم بالحق وامتاز بالعدل وهو الأم.. فالأم وحدها هي التي أنصفت الوليدة الأنثى. وعلى الرغم مما يعرض لهذه الأم من الاستهواء في البدء، تبعا للموروثات السائدة تجاه الذكورة والأنوثة في المجتمع الشرقي، فإن عاطفة الحنان لا تلبث أن تتدفق من صدر الأم مع اندفاق لبنها في ثديها، مواكبة في ذلك أنفاس فلذة كبدها، ذكرا كان أو أنثى وسرعان ما تضم ابنتها إلى صدرها بلهفة عارمة وسعادة غامرة.

ومهما يكن من أمر فإن قدوم البنت لا يلبث أيضا أن يلقى قبولا متناميا لدى الأهل والأقربين، فتعود البسمة إلى الوجوه والبهجة إلى القلوب. هذه المخلوقة الصغيرة التي شاءت لها سنة الحياة أن تهبط على الأسرة، راحت تملأ البيت ضجيجا وحبورا، بعد أن كان مظلما موحشا. وها هي الأم تطرب لمناغاتها فترقصها بنشوة واستبشار[2]:

يا هلا، هليت   يوم عيد اللي جيتي

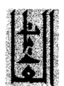
كان بيتي ظلام   والقمر ضوى بيتي

ومع كل مطلع شمس تقبل الأم على وليدتها هاشة باشة. وما إن تكتحل عيناها بتلك الطلعة النضرة والبسمة الحلوة حتى تبادر إلى التغني بسرور بالغ[3]:

١- العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه ٤٣٨/٢

٢- أشعار الترقيص عند العرب، سعيد الديوجي، ٧٩ الموصل ١٩٦٧.

٣- من المرويات المسموعة عن بعض السيدات الحلبيات ومنهن، الباحثة نجوى عثمان.



صباح الخير صبح ورد وياسمين فتح
صباح الخير خيرة تصبحنا بها الصغيرة

ومن المعهود أن تتملى كل أم وليدها وهو في مهده، حيث يبدو مشرق الوجه لا يكف عن تحريك ذراعيه ورجليه بحيوية دائبة، وعندئذ يطيب للأم أن تغني لابنها أو لابنتها مستبشرة أيضا بيوم سعيد بهيج[1] والصباح رباح كما يقولون:

هل الهل، وهل الهل
وصبحيتك صبحية الفل

وما الورد والياسمين والفل وسائر الأزاهير، مما تردده الأمهات خلال ترقيصاتهن البهيجة سوى جانب من ملامح الجمال والفتنة التي يعبق شذاها في البيوت الشامية مثل حلب ودمشق بصحونها المكشوفة وزريعاتها الناضرة، وأكشاكها المزخرفة..

وقد تتبسط الأم في مخاطبتها لابنتها وهي ما تزال في مرحلة طفولتها الأولى معتمدة على نبرات سريعة ذات إيقاع موسيقي راقص وكلمات عامية حافلة بالمعابثة والمداعبة[2]:

تس تك تس تك يا فولة
وعينك سودة ومكحولة
وأبوك شب وغاوي

ولسع انت جنجولة

ومع ذلك وفي كل صباح تهرع الأم بشغف إلى وليدتها هاشة باشة وهي تتغنى بسرور بالغ، في هذه الأشطر القصيرة ذات الجرس المحبب والإيقاع الطريف[3]:

بيس بيس نو، بيس بيس نو
دلوعة، وعمال تحلو

ومن المعهود أن تعايش الأم وليدها يوما بعد يوم منذ أن ينحدر من رحمها ويرى النور. إنها ترضعه من ثديها، وتمنحه حنانها، وتؤثره بعنايتها. وهي تترقب في كل حين باستبشار ولهفة أن يجود عليها ببسمة أو ينطق بحرف. كذلك من الطبيعي أن يتعاظم حب الأم لابنتها إلى أبعد مدى في مثل قولها[4]:

أنا جبتك من قلبي واشتهيتك من ربي

وكثيرا ما تطير الأم بوليدتها على جناح الخيال لتتألق أمامها أيضا فتاة غنية تملك المال والعقار. وثمة ترقيصة طريفة تحمل بصمات أخرى من هذا القبيل، حيث يرد فيها ذكر العديد من أحياء حلب وحاراتها وأسواقها، وفيها تخاطب أم ابنتها وتمنيها بامتلاك كروم العنب والتين وعقارات واسعة وخانات ودكاكين في أحياء حلب..[5]

١- موسوعة حلب، الأسدي ٢٧٥/٣.
٢- موسوعة حلب المقارنة، الأسدي مادة (جنجولة)١٣٣/٣.
٣- موسوعة حلب المقارنة، الأسدي مادة (دلع) ٧٣/٤.
٤- موسوعة حلب المقارنة، الأسدي مادة (برية) ١٠٦/٢.
٥- موسوعة حلب المقارنة، ١٠٦/٢.

إلـــك كرمـــين وتينـــة[١]
وإلـــك نصيـــص[٢] المدينـــة
وإلـــك خـــان حـــاج موســـى[٣]
وإلـــك دكـــاكين بانقوســـا[٤]
وإلـــك بـــالجلوم حصـــة
وإلـــك مـــن هـــالبز مصـــة[٥]

وعلى صعيد آخر من منزلة البنت عند الأم ما يتجلى بينهما من تلاحم عاطفي عند حدوث ما يعكر الصفو أحيانا من شجار مع أولاد الحارة أو مع الجيران. فقد تعلو الأصوات ويغلظ الكلام، وربما تتطور الأمور إلى التماسك بالأيدي وشد للشعور... وهكذا تعود البنت كسيرة الخاطر إلى دارها وهي تجهش بالبكاء. وإذ ذاك تهرع أمها إليها وتحتضنها بحنان ثم تهدئ من روعها منشدة[٦]:

ضربوكـــي عيـــوني ضربوكـــي
ومـــا عرفـــو منـــو أبوكـــي
لـــو عرفـــو مقـــامك عنـــدو
عـــالمراتب[٧] صمدوكـــي

ومن طبيعة الوالدين ولا سيما الأمهات أنهم ينظرون إلى أولادهم بعين الرضى والإعجاب، فهم يستبشرون بقابل أيامهم ويتفاءلون بحسن طالعهم. وكثيرة هي الترقيصات التي دارت على ألسنة الأمهات تجاه بناتهن الأثيرات وهن يغنين لهن بغبطة وطرب[٨]:

عا التكنينا نيناتا[٩]   وسكر بين سنيناتا
يا ربي تكبر بنتي   تا ناكل من دياتا[١٠]

ثم يزداد تعلق الأم بابنتها على مر الأيام، فهي تلازمها ليل نهار، وقد تقفز بها على جناح الخيال لتستشف من وراء حجب المستقبل ما يرجى لها من سعادة في مستقبل العمر. ففي الديار الشامية، ولاسيما في مدينة حلب كثيرا ما تنهمك الأم داخل مطبخها في إعداد أكلة (الكبة) دون أي معين وأمامها الآن صغيرتها التي تعمد إلى البكاء بسبب ضجرها وانصراف أمها عنها إلى ما يشغلها. وعندئذ تشرع الأم بإعلاء نبرات أشطرها المغناة ساعية إلى إسكات ابنتها أو إلهائها وتمنيها بأن عريس المستقبل متلهف على الزواج منها[١١]:

١- كرمين مثنى كرم ويراد به غالبا الكرمة أي حقل العنب.   ٢- نصيص، تصغير نص وهو النصف في اللهجة الدارجة.
٣- خان الحاج موسى واحد من خانات حلب التجارية في "المدينة".
٤- بانقوسا حي شعبي قديم، وقد ورد ذكره في قصائد عدد من شعراء حلب منذ عصر سيف الدولة.
٥- الجلوم حي قديم مشهور كانت تسكنه أسر عريقة. البز: هو الثدي ويراد به ترضيع الأم لولدها.
٦- موسوعة حلب المقارنة، مادة (أب) ١/٢٦.   ٧- المراتب مفردها مرتبة أي الفراش والكلمة شائعة في مصر.
٨- موسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي ٤/١٠٨ مادة (الدينار).
٩- كلمات ليس لها معنى ولكنها ذات هدف صوتي يغني عنصر الأداء واللحن وإيقاع الموسيقى.
١٠- دياتا أو دياتها: تعني أياديها.   ١١- موسوعة حلب المقارنة، مادة (زغر) ٤/٣٥٩.

كبيبـــة مـــين كبكبـــها
إجـــا الســـلطان وطلبـــها
قـــالوا لـــه: زغـــيرة زغـــيرة
قـــال لـــن: الله يكبرهـــا

وتعــاود الأم إنشـاد هــذه الأشـطر الموقعة على مسامع طفلتها، وهـي تلـوح لها في الوقت نفسه براحة كفها الممسكة بكرة الكبة، لتلفت نظـر ابنتها عسى أن تهدأ وتكف عن البكاء. والملاحظ في هذه الترقيصة وفي أمثالها أيضا أن هاجس الأم العربية على الدوام هـو أن تحظـى فلـذة كبدها في مقتبل العمر بالعريس المنشـود الذي تستحقه والذي يليق بها. ومـن هـذه الترقيصات ما كانت تغنيه بعض الأمهات الحلبيات على مسامع بناتهن الغاليات[1]:

عـــالتس تيســـه، وتـــس تيســـه
وعرســـــك يـــوم الخميســـه
وبعزملـــــك أهـــل الســـراي
وبطبـــــخ زرده[2] وهريســـــة

ومـن هـذا القبيل من التطلع أيضـا إلى أيام السعد المرجوة ما يـتراءى لهـذه الأم الآملة، من مظاهر وأمارات الثراء، حـين تغـدو ابنتـها الأثـيرة في كنـف أحـد كـبراء القوم[3]:

جـــانم جـــانم بـــالتركي
أحمـــد باشـــا نـــاطركي
أحمـــد باشـــا قدامـــك
شـــايل بقجـــة[4] حمـــامك
حمـــامك تحـــت القلعـــة[5]
وخدامـــك ســـتة ســـبعة

والملاحـظ أن الباشـا هـو الحـاضر الغـائب في العديد من ترقيصات الحقبة العثمانية في العصور الحديثة. إنه في نظر النـاس أحـد أعمـدة الدولـة العليـة والشخصية المرموقة في المجتمع وصاحب الجاه والمال فلا غرابة أن يكون محط آمال الأهل والأصحاب عساهم يحظـون بشرف مصاهرته، وتعيش بناتهم في كنفه عزيزات مترفات. وهذه النظرة سائدة في بلاد الشام التي كانت ضمن الإمبراطورية العثمانية. ومما يتردد على ألسنة الأمهات في ربـوع الأردن وفلسـطين مـن هـذا القبيل[6]:

هناهـا، يـا هناهـا والباشـا يتمناهـا
يا باشا اربوط خيلك حتى تخمر حناها
ألف يحف وألف يرف وألف يبارك هودجها
والباشا والمتصرف حضروا ليلة خطبتها

١- موسوعة حلب المقارنة، الأسدي مادة (زردا) ٤/٢٢٩.
٢- السراي كلمة دخيلة من التركية في العهد العثماني. الزردة حلوى تقليدية في حلب مؤلفة من الرز والسكر والزعفران.
٣- موسوعة حلب المقارنة، ٢/١٤٨.
٤- شايل بقجة حمامك: أي يحمل بين يديه صرة الثياب النظيفة. انظر مادة (بقج) في موسوعة الأسدي.
٥- يراد بعبارة تحت القلعة أحد الأحياء القديمة التي تقع بجوار سفح قلعة حلب.
٦- أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، أحمد أبو سعد، ٤٠، عن كتاب أغانينا الشعبية، هاني العمر ١٣٠.

وبوسعنا أن نستشف من مجمل هذه الترقيصات الموجهة إلى البنات الصغيرات رغبات ملحة مكبوتة لدى الأمهات في أن يتخلصن وتتخلص بناتهن من حياة الفقر الذي يعشن فيه، والبؤس الذي يكابدنه، ولهذا كن يحلمن ويتطلعن ولو بعين الخيال إلى غد وردي آت يرفلن خلاله بأثواب الغنى وبهارج الجاه ويتراءى للأم الحالمة الآملة أن الأيام أخذت تتوالى وأن الثمرة قد نضجت والفتاة قد كبرت. ها قد حان اليوم المنشود وأقبل الحظ السعيد. إنها الآن ناهد في ليلة الزفاف تتبدى في أبهى حلتها ومن حولها أترابها يتبخترن في فرح غامر. وفي مثل تلك الليلة البهيجة من ليالي الأنس بالعراق يتحلق حول العروس جمع من نساء مدينة الموصل مزدهيات بألبسة ابنتهن المعجبة التي وردت من حلب، وهن يرددن إحدى ترقيصاتهن الأثيرة، وسط دفقات متلاحقة ومتداخلة من أصوات الهنهونات والزغرودات[1]:

اللي تشلحوا ما لا　　واللي تلبسوا ما لا

أبوها تاجر حلب　　جلاب[2] الحمالا

وثمة مقطعات شعرية غنائية مشابهة تتردد على ألسنة النسوة من أهل الموصل أيضا، هذه المدينة الفراتية التي تربطها مع دير الزور والرقة وحلب وسائر مدن الشام أوثق الصلات الاجتماعية والتجارية والثقافية، منذ عهود الحمدانيين والزنكيين والأيوبيين. وهذا الواقع من التواصل الحميم يتجلى في قول أم أخرى عراقية تخاطب ابنتها بحنان[3]:

لا انجاب ولا انجلب

لا بالشام ولا بحلب

إلى أن تقول:

ريت بطن اللي جابتك

ديوان، والكرسي دهب

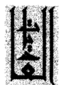
وعلى هذا الغرار تمضي سنة الحياة، ويعيش الناس ويتناسلون، ويطيب لهم في كل حين أن يحلموا، إذ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ويستمر الكون في دورانه.. □

١- أشعار الترقيص عند العرب، سعيد الديوجي، ٥٣-. الموصل ١٩٦٧.

٢- جلاب الحمالا، أي أنه ثري يكثر من جلب البضائع المحمولة من البلدان البعيدة.

٣- أشعار الترقيص. الديوجي ٤١.



محمد راغب الطباخ



- ولد في مدينة حلب عام ١٨٧٦ وتوفي فيها عام ١٩٥١.
- درس في حلب على أيدي كبار علمائها في الدين واللغة.
- درس العلوم الدينية وحث الوالي التركي في حلب على تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية وتقرر ذلك عام ١٩١٠.
- كتب في كثير من الدوريات منها: البلاغ و المنارة و المفيد في بيروت. وصدى الشهباء والجامعة الإسلامية والعاديات في حلب، و الزهراء و الفتح في مصر ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق.
- أسس المطبعة العلمية في حلب عام ١٩٢٢ بالاشتراك مع عبد الغفور المسوتي ثم استقل بها ونشر فيها كتبا تراثية إضافة إلى مؤلفاته.
- شغل مناصب رسمية ومواقع اجتماعية عديدة منها:
  - عضو مجلس معارف حلب ١٩١٠.
  - عضو مجلس أوقاف حلب ١٩١٩.
  - عضو في الغرفة التجارية ونائبا لرئيسها (١٩١٥ -١٩٢٤)
  - عضو المجمع العلمي العربي عام ١٩٢٣.
  - عضو مجلس الأوقاف الأعلى بدمشق حلب ١٩٢٢.
  - أحد مؤسسي جمعية العاديات بحلب ١٩٢٤ ورئيسها ١٩٣٤-١٩٣٩.
  - منح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى عام ١٩٤٩.
- له أربعة عشر مؤلفا مطبوعا منها:
  - إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، سبعة مجلدات.
  - الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية.
  - ذو القرنين وسد الصين. من هو وأين هو؟
  - المدارس في الإسلام.
  - وسبعة مؤلفات لم تطبع.

تحقيقات هامة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري

للأستاذ الجليل المؤرخ الشيخ محمد راغب الطباخ*

نشرت مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة في حلب عام ١٩٣ لصاحبها محمد علي الكحال المقال التالي للشيخ الطباخ، وهو المقال الذي أدى إلى نسبة قبر المعري لصاحبه.

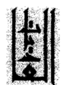
أتيح لي منذ سنوات أن أذهب إلى المعرة بلدة أبي العلاء المعري الذي طبق الأرض بشهرته وشغل الأفكار بشعره ونثره في حياته وبعد مماته إلى عصرنا هذا.

ولما ألقيت فيها عصا التسيار ذهبت إلى المسجد المدفون فيه وحينما أبصرته مكانا صغيرا بعيدا عن سمة البهاء وليس فيه من حسن البناء وباب المسجد صغير جدا لا يخطر لرائيه إذا مر به أن هناك مسجدا بل يظن أنه باب دار[1].

---

* مؤرخ ومحقق - رئيس مجلس إدارة جمعية العاديات سابقا.

١- قال ابن خلكان في ترجمة أبي العلاء. وقبره في ساحة من دور أهله وعلى الساحة باب صغير قديم وهو على غاية ما يكون من الإهمال وترك القيام بمصالحه وأهله لا يحتفلون به. وفي معاهد التنصيص للعباسي في ترجمته قال القفطي أتيت قبره سنة خمسين وستماية فإذا هو في ساحة من دور أهله وعليه باب فدخلت فإذا القبر لا أحفال به ورأيت عليه خبازى يابسة والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال قال الذهبي وقد رأيت أنا قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطي فرأيت نحوا مما حكي ويقال أنه أوصى أن يكتب على قبره: **هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد**
وهو متعلق باعتقاد الحكماء فإنهم يقولون إيجاد الولد وإخراجه إلى العالم جناية عليه لأنه يعرض للحوادث والآفات، والظاهر أن هذا البيت لم يكتب على قبره ولم تنفذ وصيته



طول صحن هذا المسجد ٣٠ قدما من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٢٥ من الشرق إلى الغرب.

وفي شرقيه حجرتان صغيرتان في إحداهما وهي الشمالية ضريح أبي العلاء رحمه الله وهي مربعة الشكل طولها ١٢ قدما وعرضها كذلك والضريح في منتصف الحجرة إلى القبلة والشرق أقرب فوقه ثلاث أحجار طولها سبعة أشبار ونصف وعرضها ثلاثة وفوق ذلك حجرة كبيرة مسنمة الشكل وفوق هذه الحجرة حجرة أخرى هي لوحة القبر قد ذهب نصفها العلوي بما فيه من الكتابة وبقي منها النصف التحتاني وعليه هذه الكتابة:

١. بن سليمان رحمه الله تو (في).
٢. الثاني... لخمس ليال مضت.
٣. رمضان سنة .... وثمانين وخمسماية.

ولما قرأت هذه السطور وكان ذلك بعد عناء شديد أخذني العجب إلى أقصاه والتفت إلى من كان حاضرا من أهل المعرة وسألته أهذا قبر أبي العلاء فقال نعم فقلت له كيف يكون هذا قبره واللوحة التي على الضريح تنادي أن صاحب هذا القبر ممن توفي بعد الثمانين وخمسمائة وأبو العلاء المعري توفي سنة ٤٤٩ فبين وفاتهما أكثر من مائة وثلاثين سنة.

ثم لاحت مني التفاتة فرأيت لوحة أخرى ملقاة في زاوية الحجرة طولها ثلاثة أشبار ونصف وعرضها شبران عليها كتابة بالخط الكوفي وقد محى منها السطر الأول ولم يبق سوى (بي) ويظهر أن المحو (هذا قبر) وألف أبي وعلى السطر الثاني والثالث العلاء بن عبد الله بن سليمان فيكون مجموع الكتابة (هذا قبر أبي العلاء بن عبد الله بن سليمان) فتكون هذه اللوحة الملقاة في طرف هذه الحجرة هي لوحة قبر أبي العلاء بلا ريب.

ولما حصل لي هذا الإشكال وصرت في شك في صاحب هذا القبر أخذت في التحقيق والتأمل فرأيت أن اللوحة الموضوعة على الضريح فيها شيء من الصفرة ولا شيء من ذلك في الأحجار الأربعة التي تحت اللوحة وتأملت في اللوحة الملقاة فوجدت نوع حجرها يشابه الأحجار التي تحت اللوحة فجعل بذلك عندي شيء من اليقين أن هذا القبر هو قبر أبي العلاء وأن هذه اللوحة الملقاة في الحجرة هي لوحة قبره.

ثم جمعتنا مجالس مع كثير من أهل المعرة من سراتها وفضلائها شبانها وشيوخها وكانت القصة موضوع حديثنا فكان الكل يشهدون بطريق التواتر أن هذا القبر هو قبر أبي العلاء غير أن هذه

الحجرة كانت قد تهدمت منذ ستة وعشرين سنة أي في سنة ١٣٢٧هـ فأعاد بناءها السري الوجيه نورس باشا الحراكي رحمه الله كما هو مسطور على حجرة فوق باب الحجرة.

فهنا تبين أن البناء (وهو من العوام طبعا ومن الصعب عليه بل وعلى غيره ممن لم يمارس قراءة الخطوط القديمة خصوصا إذا كانت على الأحجار) لم يفرق بين حجرة وحجرة فوضع الحجرة المحرر عليها سنة.... وثمانين وخمسمائة بدل تلك. وكان فوق الأحجار ضريح من خشب قد جلل بكساء أخضر على عادة ما يوضع فوق أضرحة الأولياء فلما زار العلامة أحمد زكي باشا المصري رحمه الله المعرة وكان ذلك قبل زيارتي بنحو سنة كلف أهل المعرة أن يرفعوا هذا التابوت فرفع للحال ورأيته موضوعا على مصطبة في صحن المسجد وأخبرني أهل المعرة بسبب رفعه، فلعل وجود هذا التابوت الخشبي فوق تلك الأحجار كان السبب في عدم الوقوف على هذه الحقيقة ممن زار قبر أبي العلاء من الباحثين وظل ذلك إلى أن أتيح لنا الرحلة إلى المعرة ووفقنا لاكتشاف هذه الحقيقة. ويظهر أن صاحب السعادة لم يمعن النظر في هذه اللوحة ليظهر له ما يظهر لنا وإلا فهو ابن بجدتها وذلك البحاثة الكبير.

ولما قامت لدي هذه الدلائل وزال عني ذلك الشك ذاكرت حضرة قائم مقام المعرة نسيب بك النابلسي الدمشقي وقائد الدرك فيها وقتئذ إبراهيم أفندي فسرا جدا لهذه التحقيقات وحضرا مع جمع حافل من أهل المعرة إلى المسجد وأحضرا بناء فرفعت اللوحة السابقة ووضعت اللوحة المحرر عليها هذا قبر أبي العلاء الخ.. وارتاح الجمع لهذه التحقيقات لأنه لو بقيت اللوحة السابقة وفقدت اللوحة الأخرى من الحجرة وحضر أحد الباحثين العارفين بقراءة الخطوط القديمة لجزم أن هذا القبر ليس قبر أبي العلاء ويتساءل عندئذ أين قبره ويحكم أنه قد درس.

وزيادة في التحقيق أحببت أن أبحث عن صاحب اللوحة السابقة فراجعت تاريخي (أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) فوجدت في الجزء الرابع منه (ص٢٧٣) ترجمة أبي اليسر شاكر ابن عبد الله بن محمد بن أبي المجد بن عبد الله بن سليمان المعري وأن وفاته كانت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فتكون اللوحة السابقة لقبر أبي اليسر (وهو من أولاد أخي أبي العلاء) وكلمة إحدى قد محيت من اللوحة.

غير أن ما يجدر ذكره هنا أن ترجمته المنقولة عن معجم الأدباء لياقوت وعن كتاب الإنصاف والتحري للكمال ابن العديم لم يذكر فيها مكان وفاته ووجدت له ترجمة في مختصر تاريخ الذهبي للعلامة أحمد بن الملا وهو من مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب وقد ذكره فيمن توفي سنة ٥٨١ إلا أنه لم يذكر أيضا مكان وفاته ولم أجد بعد البحث أن أحدا من أسرة أبي العلاء كانت وفاته في هذه السنة غير أبي اليسر هذا. لذا تحقق عندي أن أبا اليسر كان مدفونا والله أعلم بجانب قبر أبي العلاء أو في الحجرة الثانية التي بجانب هذه الحجرة لكنه درس ولم يبق من آثاره سوى هذه اللوحة التي وضعت غلطا على قبر أبي العلاء.

وفي المسجد قبلية صغيرة طولها من الشرق إلى الغرب ٢٤ قدما وعرضها ٢٢ في جانبها الغربي قبر قديم عليه كتابة قديمة على لوحته وعلى جانبيه. أما التي على اللوحة فهي سورة الإخلاص (قل هو الله أحد... الخ) وأما التي على جانبه الشمالي فهي آية الكرسي وتتمتها على حجرة فوق القبر. وأما على الطرف الآخر الملاصق لجدار القبلية فهي:

١. هـا.. أبو.. بن أحمد بن مدرك
٢. رحمه الله سنة اثنتين وأربعين وستماية

وأحمد بن مدرك هو والد المدفون هنا أو جده وهو من التنوخيين أسرة أبي العلاء وله ذكر في كتاب الإنصاف والتحري الذي أدرجناه في الجزء الرابع من تاريخنا.

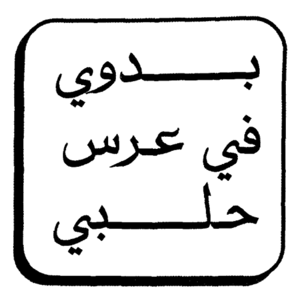
ولأحمد بن مدرك أخ رأيت له ذكرا في عيون التواريخ لابن شاكر في الجزء الرابع منه حيث قال ولأبي سهل عبد الرحمن بن مدرك التنوخي المعري:

كأن دمشق أفلاك تدور
تلوح بها الشموس أو البدور
وأي محلة قابلت منها
رأيت كواكبا فيها تسير

وشرقي هذه القبلية خربة طولها ٤٠ قدما وعرضها ٢٤ وقد أراد بعض الجيران أن يحتكر قطعة من هذه الأرض يدخلها إلى داره وبعد أن حفر هناك وجد عدة قبور فعدل صاحب الدار عن أخذ تلك القطعة وردمت تلك الحفر فتبين من هذا أن أسرة أبي العلاء كانت تدفن في هذه الخربة وأنها تربتهم التي أشار إليها المؤرخون وأن منهم من دفن داخل القبلية وفي الحجرتين المتقدمتين والله أعلم!! □

نقلا عن مجلة "الجامعة الإسلامية"

١٧/ أيلول/ ١٩٣٠



أبو الفرج الأصفهاني*

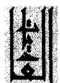
أخبرني الحسن بن علي الخفاف، قال:

كان ناهض بن ثومة الكلابي يفد على جدي قثم فيمدحه، ويصله جدي وغيره، وكان بدويا جافيا كأنه من الوحش، وكان طيب الحديث فحدثه يوما: أنهم انتجعوا ناحية الشام، فقصد صديقا له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية كان ينزل حلب فإذا نزل نواحيها أتاه فمدحه، وكان برا به، قال: فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عبد الله الهلالي، فرأيت دورا متباينة وخصاصا[1] قد ضم بعضها إلى بعض، وإذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون، عليهم ثياب تحكي ألوان الزهر، فقلت في نفسي: هذا أحد العيدين: الأضحى أو الفطر. ثم ثاب إلي ما عزب عن عقلي، فقلت: خرجت من أهلي في بادية البصرة في صفر، وقد مضى العيدان قبل ذلك، فما هذا الذي أرى؟ فبينا أنا واقف متعجب أتاني رجل فأخذ بيدي، فأدخلني دارا قوراء[2] وأدخلني منها بيتا قد نجد في وجهه فرش ومهدت، وعليها شاب ينال فروع شعره منكبيه، والناس حوله سماطان[3] فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي حكي لنا جلوسه على الناس وجلوس الناس بين يديه، فقلت وأنا ماثل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله

---

* أبو الفرج علي بن الحسين. عالم أديب من أصفهان. قرشي الأصل، بغدادي المنشأ. عليم بأيام العرب وأنسابهم وسيرهم وأخبارهم، حافظ للشعر وذو بصيرة في الموسيقا والأنغام والألحان وأنماط الغناء.
وقد ألم بعلوم عصره ووعى ثقافاته ومعارفه، وكان من حصيلة ذلك مؤلفات عديدة أجلها شأنا "الأغاني" وهو كتاب موسوعي الطابع يشتمل على الأدب والتراجم وعيون النثر والشعر والأخبار. ويعنى بتصوير حياة الناس والأمراء. وقد قدمه مؤلفه إلى سيف الدولة الحمداني.
ويعد قمة التأليف في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. طبع عددا من المرات في بضعة وعشرين مجلدا. توفي أبو الفرج سنة ٣٥٦هـ /٩٦٦م.
وهذا النص من قبيل أدب التراجم وقد أسماه أبو الفرج "اخبار ناهض بن ثومة الكلابي" وهو شاعر من فصحاء البادية في العصر العباسي.

١- الخصاص بكسر الخاء: البيوت من القصب ومفردها خص بضم أوله وتشديد ثانيه.
٢- اقوراء: الواسعة.
٣- السماطان بكسر السين: الصفان.



وبركاته. فجذب رجل يدي وقال: اجلس فإن هذا ليس بأمير. قلت: فما هو؟ قال: عروس. فقلت: واثكل أماه، فلم أنشب[1] أن أدخل رجال يحملون هنات[2] مدورات، أما ما خف منها فيحمل حملا، وأما ما كبر وثقل فيدحرج، فوضع ذلك أمامنا، وتحلق القوم عليه حلقا، ثم أتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا ثيابا، وهممت أن أسأل القوم منها خرقا أقطعها قميصا، وذلك أني رأيت نسجا متلاحما لا يبين له سدى ولا لحمة[3]، فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزق سريعا، وإذا هو -فيما زعموا- صنف من الخبز لا أعرفه، ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض، وحار وبارد، فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التخم والبشم، ثم أتينا بشراب أحمر في عساس[4]، فقلت: لا حاجة لي فيه، فإني أخاف أن يقتلني. وكان إلى جانبي رجل ناصح لي أحسن الله جزاءه، فإنه كان ينصح لي من بين أهل المجلس، فقال: يا أعرابي، إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء همى[5] بطنك. فلما ذكر البطن تذكرت شيئا أوصاني به أبي والأشياخ من أهلي، قالوا: لا تزال حيا ما كان بطنك شديدا فإذا اختلف[6] فأوص. فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به، وجعلت أكثر منه فلا أمل شربه، فتداخلني من ذلك صلف لا أعرفه من نفسي، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لي بمثله، واقتدار على أمري أظن معه أني لو أردت نيل السقف لبلغته، ولو ساورت[7] الأسد لقتلته وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح لي فتحدثني نفسي بهتم[8] أسنانه وهشم أنفه، وأهم أحيانا أن أقول له: يا بن الزانية! فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة، أحدهم قد علق في عنقه جعبة فارسية مشنجة[9] الطرفين دقيقة الوسط، مشبوحة[10] بالخيوط شبحا منكرا، ثم بدر الثاني فاستخرج من كمه هنة سوداء فوضعها في فيه، وضرط

١- فلم أنشب: يقال: ما نشبت أفعل كذا أي ما زلت.

٢- هنات بفتح الهاء: أشياء، مفردها هنة.

٣- السدى من الثوب: ما مد من خيوطه طولا وهو خلاف لحمته، إذ لحمة الثوب ما نسج عرضا.

٤- العساس بكسر العين: ج عس بضم أوله وتشديد ثانيه: القدح الكبير.

٥- همى بطنه: انطلق، يقال: همى الماء: سال لا يثنيه شيء، وهمت العين: صبت دمعها.

٦- اختلف: أصابه إسهال.

٧- ساورت الأسد: واثبته.

٨- هتم أسنانه: كسرها.

٩- المشنجة: المتقضبة، والتشنج عند الأطباء تقلص يعرض للعصب يمنع الأعضاء عن الانبساط.

١٠- مشبوحة: مشقوقة، يقال: شبح الشيء: شقه.

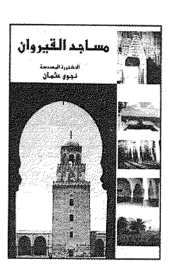
ضراطا لم أسمع -وبيت الله- أعجب منه، فاستتم بها أمرهم، ثم حرك أصابعه على أجحرة[١] فيها فأخرج منها أصواتا ليس كما بدأ تشبه الضراط ولكنه أتى منها لما حرك أصابعه بصوت عجيب متلائم متشاكل بعضه لبعض، كأنه، علم الله، ينطق. ثم بدا ثالث كز مقيت[٢] عليه قميص وسخ معه مرآتان فجعل يصفق بيديه إحداهما على الأخرى فخالطتا بصوتهما ما يفعله الرجلان، ثم بدا رابع عليه قميص مصون وسراويل مصونة وخفان أجذمان[٣] لا ساق لواحد منهما، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب، ثم التبط[٤] به على الأرض، فقلت: معتوه ورب الكعبة! ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندي.

ورأيت القوم يحذفونه[٥] بالدراهم حذفا منكرا، ثم أرسل النساء إلينا: أن أمتعونا من لهوكم هذا. فبعثوا بهم، وجعلنا نسمع أصواتهن من بعد، وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فعلت الأصوات بالثناء عليه والدعاء، فخرج فجاء بخشبة عيناها في صدرها، فيها خيوط أربعة فاستخرج من خلالها عودا فوضعه خلف أذنه، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في يده فنطقت -ورب الكعبة- وإذا هي أحسن قينة[٦] رأيتها قط، وغنى عليها فأطربني حتى استخفني من مجلسي، فوثبت فجلست بين يديه، وقلت: بأبي أنت وأمي، ما هذه الدابة فلست أعرفها للأعراب وما أراها خلقت إلا قريبا. فقال: هذا البربط[٧] فقلت: بأبي أنت وأمي، فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: الزير[٨]. قلت: فالذي يليه؟ قال: المثنى[٩]. قلت: فالثالث؟ قال: المثلث[١٠]. قلت: فالأعلى؟ قال: البم[١١]. قلت: آمنت بالله أولا، وبك ثانيا، وبالبربط ثالثا، وبالبم رابعا. ■

عن كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني ١٢/٣٣ بتصرف

١- الأجحرة: ج جحر وهو كل مكان تحتفره الهوام والسباع لأنفسها.
٢- الكز: الجهم المنقبض. والمقيت: الممقوت.
٣- الأجذمان: مثنى أجذم وهو مقطوع اليدين.
٤- التبط به: المعروف: لبط به أي صرع.
٥- يحذفونه: يرمونه.
٦- القينة: المغنية.
٧- البربط بفتح الباءين وسكون الراء: العود، معرب بربط بفتح الباءين وكسر الراء بالفارسية ومعناه صدر الأوز لأنه يشبهه.
٨- الزير: أدق أوتار العود.
٩- المثنى: بفتح أوله وسكون ثانيه: من أوتار العود بعد الأول.
١٠- المثلث: من أوتار العود.
١١- البم (بفتح أوله وسكون ثانيه) من العود أغلظ أصواته أو الوتر الغليظ من أوتار المزهر، والجمع بموم بضم الباء وسكون الواو.





مساجد القيروان

تأليف: الدكتورة نجوى عثمان

مطبعة دار عكرمة – دمشق ٢٠٠٠

٦١٦ صفحة من القطع الكبير

أحمد حسن الخميسي*

لقد اهتم المسلمون ببناء المساجد وعمارتها منذ صدر الإسلام، فكانت في بدايتها بسيطة لا زخرفة فيها، ولكن في العصر الأموي والعباسي وما تلاهما، بدأ الخلفاء والأمراء يعتنون بالمساجد تشييدا وزخرفة وتجديدا، حتى غدت تلك المساجد روعة من روائع الفن المعماري.

وما من مدينة فتحها الجيش الإسلامي إلا وأسس فيها الأمير مسجدا جامعا، يكون منطلقا للجهاد والدعوة، ومكانا للعبادة وطلب العلم.

واشتهرت عدة مدن بمساجدها مثل الجامع الأموي بدمشق، وجامع عقبة بن نافع، وجامع الزيتونة في القيروان في تونس، وجامع الأزهر في القاهرة.

وقد لفتت هذه المساجد أنظار العالم، فأمها السياح من كل مكان للإطلاع على ما فيها من رقي حضاري، وكتبت المؤلفات في تاريخها ومظهرها وبنائها وزخرفتها ومآذنها وقبابها ودورها في حياة المسلمين.

فكتب الدكتور طه حسين مؤسس كتاب (المساجد) الذي أصدره المجلس الوطني للثقافة والفنون في الكويت ضمن سلسلة عالم المعرفة رقم /٣٧/ وألفت عدة كتب عن الفن الإسلامي، تحدثت عن المساجد، مثل كتاب (الفن الإسلامي) لعفيف بهنسي، وطبعته دار كلاس - عام ١٩٨٧م و(موسوعة الفن الإسلامي) بثلاثة مجلدات، أصدرتها مؤسسة الوحدة في الكويت، وثمة كتب أخرى تناولت المساجد مثل كتب العمارة الإسلامية.

إن هذه الكتب وقفت عند المدن

* إجازة في الأدب العربي.

الإسلامية ومساجدها وقلاعها، وأظهرت بالمعلومات التاريخية الموثقة وبالصور القيمة الفنية والجمالية لهذه المعالم الأثرية الخالدة.

ومن الكتب الهامة والفريدة في هذا الموضوع ما ألفته الدكتورة المهندسة (نجوى عثمان) حيث صدر لها كتاب بعنوان : (مساجد القيروان) - دمشق مطبعة دار عكرمة عام/ ٢٠٠٠/م وعدد صفحاته /٦١٦/ صفحة.

قسمت المؤلفة الكتاب إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول عن التاريخ العمراني لمدينة القيروان، والقسم الثاني قدمت فيه دراسة تاريخية وهندسية لجوامع القيروان وبدأت بالمساجد الثلاثة التالية: جامع عقبة بن نافع (الجامع الأعظم) وجامع الزيتونة، وجامع الباي (جامع الحنفي) ثم الجوامع التي تلتها حتى العصر الحديث، وخصصت القسم الثالث لوثائق جمعية الأوقاف المتعلقة بالمساجد الجامعة والمساجد الصغيرة، وموضوعات أخرى متنوعة، وأثبتت في نهاية الكتاب ملحقات تغنيه وتكملة، بالإضافة إلى ذلك ذكرت فهارس للمصادر والمراجع والجداول والصور والمخططات والوثائق، وفهرسا عاما للموضوعات.

إن الدكتورة المهندسة نجوى عثمان نذرت نفسها لمثل هذه الدراسات والبحوث، فقد نالت الماجستير في تاريخ العلوم التطبيقية عام ١٩٩١م وموضوع البحث (الهندسة الإنشائية في مساجد حلب) ونالت الدكتوراه في تاريخ العلوم التطبيقية عام ١٩٩٨م وموضوع البحث (دراسة هندسية مقارنة بين مساجد حلب ومساجد القيروان) وطبع لها كتاب (حلب في مئة عام، ١٨٥٠-١٩٥٠) في ثلاثة أجزاء - جامعة حلب.

وما إن انتهت من أعمالها هذه، حتى توجهت من حلب إلى مدينة القيروان في تونس لتكمل رحلتها مع مساجد الوطن العربي، ولتسجل لنا معلومات ووثائق موضحة بالصور عن أهم المساجد في المغرب العربي.

إن الباحة لم تكتف بالنقل من المراجل والإطلاع على المخطوطات، بل عاينت القيروان ومساجدها عن قرب فقالت عن ذلك في مقدمة الكتاب: ((قضيت شهرا أتجول في حومات القيروان وأرباضها وأنهجها وأزقتها وزنقانها وزرت جوامعها ومساجدها مرات عديدة، وسجلت ملاحظاتي الهندسية حولها، وأخذت مقايسات بعضها كنماذج، والتقطت الصور لعناصرها الهندسية المتميزة، فأنجزت بذلك الدراسة المبدئية للمساجد

كلها التي بلغ عددها /١٢٣/ مسجدا واعتمدت في هذا كله على جهدي الشخصي، وعملت بمفردي بصمت وبشكل دائم ومستمر)) هذه الدراسة الميدانية، جعلت الكتاب يحتوي مضامين دقيقة في وصفه لتلك الآثار الخالدة التي بنيت في مدينة القيروان، وأضافت المؤلفة لدراستها الميدانية، تاريخ المساجد حسب العصور التي مرت بها، وتضمن الكتاب تسعة عشر جدولا في تاريخ المساجد وتطورها وخواصها الهندسية وغير ذلك من المعلومات، وتضمن مئة وثمان وأربعين صورة توضيحية للمساجد وما فيها وملحقاتها، وتضمن ستة وخمسين مخططا هندسيا معماريا لبناء المساجد وما فيها.

اختارت المؤلفة مدينة القيروان بالذات لما لها من مكانة في نفوس المسلمين، فهي مدينة عربية أفريقية أنشأها عقبة بن نافع عام /٥٠/هـ ٦٧٠م وبنى فيها المسجد الذي سمي باسمه.

لقد اهتمت الكاتبة بمساجد القيروان، فأفردت لها هذا الكتاب الذي يعد الأول من نوعه، إذ إنه استقل بالكتابة عن مساجد القيروان كتابة ميدانية موثقة، تفيد المختصين وغير المختصين الذين يشدهم سمو الفن الإسلامي وروعته.

إن هذا الكتاب أغنى المكتبة التراثية العربية الإسلامية في هذا الجانب، فهو يتميز عن غيره بعدة ميزات منها:

١- أنه دراسة ميدانية قائمة على المعاينة والمقايسة.

٢- قد تضمن مخططات هندسية لا توجد في غيره.

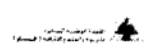
٣- وتضمن مخططات وجداول بيانية وصورا ملونة توضيحية.

٤- اعتنى الكتاب بالوصف الهندسي والجملة الإنشائية.

٥- أعد الكتاب بشكل منهجي فالمؤلفة عند الحديث عن مسجد من المساجد تتبع الخطوات الرئيسية التالية: تقدم لمحة تاريخية عن المسجد، ثم تسلط الضوء عليه بشكل عام ثم على أجزائه كالقبة والمحراب والمنبر والمئذنة وتتحدث عن السقوف والأقواس، وكل ما يتبع المسجد.

يبرز الكتاب عظمة الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية، مما يجعلنا نفخر بأولئك العباقرة الذين أشادوا لنا حضارة مادية ومعنوية يقف لها التاريخ إجلالا واحتراما. ■

وردَ حديثاً إلى مكتبة العاديّات*



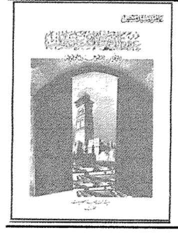
المدن العربية الكوسموبوليتية (بيروت - الإسكندرية - حلب)

عدد الصفحات: ١٥٤ / قطع كبير

منشورات اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو

إعداد: نقولا زيادة - سحر حمودة - محمد قجة.

في تقدير خاص لمدن بيروت والإسكندرية وحلب وانفتاحها على العالم خلال العصر الحديث، قامت اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو بتكليف ثلاثة من الباحثين في التاريخ.. فعرضوا الأوجه الحضارية المختلفة لتلك المدن وغناها الاجتماعي والثقافي المميز.. كتاب للتأمل والتفكر.



عروق الذهب فيما كتب عن حلب

عدد الصفحات: ١١٠ صفحات / قطع كبير

منشورات جمعية العاديات بحلب عام ٢٠٠٤م .

تأليف: عامر رشيد مبيض.

يستمر المؤلف في رصده لكل ما يتعلق بحلب، المدينة والتاريخ والإنسان.. فيسجل أكثر من مائتين وخمسين مؤلفا مطبوعا أو مخطوطا عن مدينة حلب، إضافة إلى العديد من المقالات التي وردت في الدوريات.


الجامعة الإسلامية

صحيفة الجامعة الإسلامية

(سياسية توجيهية حرة/علم - أخلاق - أدب - تاريخ)

عدد المجلدات: ١٠. **عدد الصفحات لكل مجلد**: ٣٢٢/قطع كبير.

الناشر: ورثة المرحوم محمد علي الكحال . عام ٢٠٠٤

في بادرة جديرة بالإكبار، قام ورثة محمد علي الكحال بإعادة نشر جميع أعداد مجلة الجامعة الإسلامية التي كانت تصدر في حلب بين عامي: ١٩٢٩م حتى ١٩٦٣م.

توفر المجلة للباحثين والمهتمين مرجعاً نادراً عن الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في العالمين العربي والإسلامي.

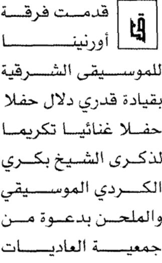
* يمكن شراء هذه الكتب من ديوان الجمعية.



نشاطات الجمعية*

حفل غنائي موسيقي لفرقة أورنينا للموسيقى الشرقية

تكريما لذكرى الشيخ بكري الكردي



قدمت فرقة أورنينا للموسيقى الشرقية بقيادة قدري دلال حفلا حفلا غنائيا تكريما لذكرى الشيخ بكري الكردي الموسيقي والملحن بدعوة من جمعية العاديات وجمعية الشهباء برعاية الأستاذ أسامة حامد عدي محافظ حلب وحضوره، وحضور الرفيق عبد الغفور صابوني أمين فرع حلب للحزب وجمهور غفير من محبي الطرب الأصيل وقدم فيها الغناء العربي الأصيل بين الموشح والقصيدة والدور والمنولوج والطقطوقة وأبدعها الفنان الراحل الشيخ بكري الكردي.

ومن الجميل في أمسيتنا الموسيقية هذه بأن كان فيها بعض الأهالي مصطحبين معهم أولادهم وبناتهم في عمر التفتح إلى هذه الحفلة الطربية ليلفتوا أنظارهم وأسماعهم إلى مكامن وجمال هذا الطرب العربي الأصيل.

فهذا ما نأمله من باقي الأهالي بأن يفعلوا مثلهم لنحمي جيلنا الصاعد من هذا الصخب الموسيقي والغنائي السائد هذه الأيام وكي نساعد على حماية تراثنا الموسيقي وانتشاره وتطويره.■

---

* إعداد: غسان خليل - زكية حرح.

تصوير: غسان خليل - نزار باقو - وصفي وراق.

وفد من اتحاد كتاب إيران يزور العاديات ويلتقي الأدباء

زار جمعية العاديات وفد من اتحاد الكتاب والأدباء الإيرانيين الذي يزور سورية حاليا. ضم الوفد أدباء يكتبون أجناس أدبية مختلفة (شعر - قصة - مسرح - سيناريو..)

إضافة إلى كونهم يحملون اختصاصات علمية مختلفة.



التقى الوفد في مبنى جمعية العاديات عددا من الأدباء والباحثين أعضاء اتحاد الكتاب العرب حيث كان باستقبال الوفد رئيس الجمعية الباحث محمد قجة ورئيس فرع اتحاد الكتاب العرب بحلب القاص عبدو محمد، كما كان الجانب السوري يضم الدكتور الشاعر سعد الدين كليب مدرس الأدب في جامعة حلب، والشاعر جلال قضيماتي أمين صندوق فرع اتحاد الكتاب العرب بحلب، والمهندس تميم قاسمو المدير الإداري لجمعية العاديات، والدكتور عباس صباغ رئيس قسم الآثار في جامعة حلب، وأمين سر جمعية العاديات الدكتور محمد جمال طحان.

ومن الجانب الإيراني ضم الوفد الباحث غلام علي رجائي رئيس الوفد والأدباء الأساتذة : حسين فتاحي - محمد حسين جعفريان - جلال توكلي - حسين اسرافيلي - د. صابر أمامي - جواد محقق - هدايت الله بهبودي - سيد سعيد رحماني - هدايت الله جلالي.

في اللقاء جرى الحديث عن التبادل الثقافي والتأثير المتبادل بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعن خصائص الأدب في كل دولة وعن القواسم المشتركة في التراث وفي التصدي للإمبريالية والاستعمار والقوى المهيمنة الغاشمة في العالم.

وقد قرأ بعض الأدباء من الجانبين انموذجا من نتاجاتهم الأدبية، وتبادلوا الكتب وبعض المطبوعات، مؤكدين على أهمية استمرار التعاون وتدعيمه بحيث تم تبادل بعض النصوص لترجمتها إلى اللغة الأخرى.■

الغزو المغولي لعامر مبيض في العاديات

ما الفرق بين المغول و التتار، من هو جنكيز خان، ما أخبار قسوة المغول ووحشيتهم، ما العوامل التي أسهمت في نصر المماليك، ما قصة الزحف المغولي على حلب، كيف كانت استعدادات حلب لمواجهة المغول؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت مدار محاضرة ألقاها الأستاذ عامر رشيد مبيض في جمعية العاديات، فكانت ورقة بحث مثيرة للجدل بين مؤيد ومعارض.

وتكتسب هذه المحاضرة بعض أهميتها من مواكبتها لما يحدث في العالم بعد أن بات مكشوفا غزو المغول الجدد. جمع المحاضر الوثائق المتعلقة بالموضوع ودرس النصوص التاريخية التي تتعلق بهذا الموضوع، وعكف على اختيار الطريقة المثلى ليقدم محاضرة شاملة ومقتضبة تلم بالموضوع من جوانبه كافة. ■

محاضرة تبين روائع الفن الإسلامي وتفضح سرقة الآثار

امتازت الحضارة الإسلامية بأشكال زخرفية خاصة، و في القرن السابع الهجري شاعت في زخرفة الأواني الزجاجية الموضوعات الأدبية ورسوم الحيوان والنصوص الكتابية، وبلغت المشكاوات المموهة بالمينا والذهب شأنا كبيرا في الزخرفة، وكذلك تمتاز التحف البرونزية الإيرانية المصنوعة في ذلك الزمان باكتحالها بالفضة. وقد أضيفت للتحف المملوكية المعدنية تعبيرات زخرفية جديدة وبالرغم من تنوع الفن الإسلامي بحيث لا نجد تحفتين متماثلتين، فالفن الإسلامي يمتاز بوحدته بحيث لا يصعب علينا تمييز الفن الإسلامي من سواه. حول هذا الفن دارت محاضرة الدكتور ميخائيل أسعد التي ألقاها في جمعية العاديات.

بدأ المحاضر بتبيين الغاية من المحاضرة وقدم وجهة نظره في هذا النوع من الفن ثم بدأ بعرض شرائح ضوئية تبرز معالم الزخرفة الإسلامية وتظهر أبرز التحف الفنية التي أبدعت على مر العصور، مبينا قيمتها الفنية ومصدرها. وقد ركز المحاضر على نقاط أساسية هي: أن الغاية من هذه المحاضرة هو التركيز على ثقافة الفن الإسلامي والعربي، حيث هناك جهل كبير بقيمتها من الناحية الفنية والتاريخية والحضارية وحتى المادية! ■

الطاقة والعمارة الداخلية

في رحاب جمعية العاديات ألقى المهندس شانط كيراغوصيان محاضرة بعنوان الطاقة والعمارة الداخلية ورأى فيها أن الإنسان يعيش في العالم الآن في مساكن غير ملائمة و لا يقدر على تدبير حاجاته الضرورية من الطاقة.

بينما استطاع أجدادنا ولقرون عديدة أن يظلوا أحياء تحت الظروف نفسها براحة في مساكن تقليدية لأنهم استفادوا من الطاقات التي توافرت في بيئتهم المحلية.

ورأى المحاضر أهمية الرجوع إلى المواد الأولية الطبيعية وضرورة الاستفادة منها عند بداية أي مشروع في التصميم الداخلي لأن المواد الطبيعية تمد الجسم بالطاقة مثل الشمس والخشب الطبيعي والمياه والحجر الطبيعي على عكس المواد الصناعية مثل المرايا والزجاج والفولاذ والحديد التي تعكس الطاقة وبالتالي تمتص طاقة الجسم، ولذلك لا ينصح من إكثار المرايا ضمن الأركان المعيشية اليومية. ■

صورة الأوربيين في أدب أسامة بن منقذ

قدم الأدب العربي في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)، صورا متنوعة لصلات العرب بالأوربيين الذين حملتهم موجات الحروب "الصليبية" ليقيموا في البلاد العربية ممالكهم الاستيطانية التي استمرت زهاء مئتي سنة. جاء الاهتمام الأدبي العربي بصورة الآخر. الأوربي، تعبيرا صادقا عن إخلاص الأدب لرسالته ووظائفه القومية والاجتماعية في تلك الحقبة المهمة من التاريخ، وقد بين العديد من النقاد والباحثين أهمية هذا الجانب من رسالة الأدب. حول هذا الموضوع وفي رحاب جمعية العاديات ألقى د. راتب سكر محاضرة بعنوان (صورة الأوربيين في أدب أسامة بن منقذ) حيث تنوعت ألوان صورة الأوربيين في أدب الفارس الشاعر أسامة بن منقذ (٤٨٩ - ٥٨٤ هـ)، الذي خبر إبان حياته الطويلة في القرن السادس الهجري مرحلة من مراحل اللقاء الحضاري والتصادمي بين العرب والأوربيين في المشرق العربي.

هدفت المحاضرة إلى توصيف ألوان تلك الصورة وتحليل دلالاتها الأدبية والاجتماعية، وبيان المؤثرات التي تركتها في شعر أسامة ونثره. ■

العاديات والجماهير تكرمان الأطفال الفائزين في مسابقة الكواكبي



بالتعاون بين جمعية العاديات وصحيفة الجماهير وفي مقر الجمعية تم تكريم الفائزين بمسابقة السيرة القصصية للكواكبي التي نشرتها صحيفة الجماهير على حلقات من تأليف الدكتور محمد جمال طحان وقد حضر الحفل الأستاذ محمد ماهر موقع رئيس تحرير صحيفة الجماهير ومؤلف السيرة د. جمال طحان وحفيد الكواكبي القاضي الأستاذ سعد زغلول الكواكبي وأولياء الأصدقاء المشاركين في المسابقة وحشد من المهتمين بموضوع الطفولة .

قدمت الحفل الطفلة نور طحان (الصف الثامن) حيث بدأت بقراءة نبذة عن حياة الكواكبي ذكرت فيها مولد المفكر عبد الرحمن الكواكبي بحلب في التاسع من تموز عام ١٨٥٥ م . ومن ثم تم توزيع الجوائز وشهادات التقدير.■

مهرجان المتنبي الشعري الثاني

"عندما يولد المبدع تهتز الأشجار، لتعلن عن ثمار لا تموت"

مهرجان المتنبي الشعري هو المهرجان الذي فكرت جمعية العاديات في إقامته سنويا باسم الشاعر الكبير ابن مدينة حلب ولسان حالها الذي سكن حلب كما سكنته وكتب أحلى قصائده فيها لأنه مالئ الدنيا وشاغل الناس..

ومهرجان المتنبي الشعري الثاني دعت لإقامته جمعية العاديات بالتعاون مع مديرية الثقافة في الشهر السابع من عام ٢٠٠٤ في دار الكتب الوطنية بحلب. شارك فيه كل من الشعراء: علاء الدين عبد المولى، عبد الرحمن عمار، بهيجة مصري إدلبي، زكريا مصاص . أعد للمهرجان وقدمه د. جمال طحان. ■

البرنامج الثقافي للنصف الثاني من عام ٢٠٠٤

التاريخ	الموضوع	المحاضرون	المكان
الخميس ٧/٨	أمسية شعرية – قصصية	د. جمال طحان - عبد الرحمن عمار - أدارها مصطفى النجار	جمعية العاديات
الجمعة ٧/٩	مهرجان المتنبي الشعري الثاني علاء الدين عبد المولى - عبد الرحمن عمار - زكريا مصاص بهيجة مصري أدلبي - أدارها د. جمال طحان		بالتعاون مع مديرية الثقافة دار الكتب الوطنية
الأحد ٧/١٨	تحية إلى العجيلي أ.محمد قجة - أ. عبدو محمد - د. أحمد قدور - أ. كامل قطان أ. وليد إخلاصي - د. فايز الداية - أ. نذير جعفر. أدارها د. جمال طحان		بالتعاون مع مديرية الثقافة واتحاد الكتاب العرب
الأربعاء ٧/٢١	آخر المستجدات في قلعة سمعان	جاك لوك بيسكوب	جمعية العايدات
الأربعاء ٨/٢٥	العمارة الطينية والطاقة	شانطل كيراغوصيان	جمعية العاديات
الأربعاء ٩/١	الغزو المغولي لحلب ومعركة عين جالوت	عامر مبيض	جمعية العاديات
الأربعاء ٩/١٥	الآثار الإسلامية في بصرى الشام	د. نجوى عثمان	جمعية العاديات
الأربعاء ٩/٢٢	مهرجان الذكرى الثمانين لجمعية العاديات	أربعاء - خميس - جمعة	جمعية العاديات
الأربعاء ٩/٢٩	من دولة القانون إلى الحكم الجيد	د. سام دلة	جمعية العاديات
الأربعاء ١٠/٦	فنانون راحلون من حلب	طاهر البني	جمعية العاديات
الأربعاء ١٠/١٣	مكتبة الاسكندرية عبر التاريخ	محمد قجة	جمعية العاديات
الأربعاء ١١/١٧	حلبيون أبدعوا في لبنان	رياض حلاق	جمعية العاديات
الأربعاء ١١/٢٣	البادية السورية	سلطان المحيسن	جمعية العاديات
الأربعاء ١١/٢٤	تاريخ سورية المعاصر في الاستشراق الفرنسي	عبد الرحمن بيطار	جمعية العاديات
الأربعاء ١٢/١	آلهة كنعان	محمد مصطفى	جمعية العاديات
الأربعاء ١٢/٨	حلب في وثائق الخارجية البريطانية	جان داية	جمعية العاديات
الأربعاء ١٢/١٥	قراءة في كتاب خرائط المستقبل - برنار لويس	د. زكي حنوش - أ. تميم قاسمو	جمعية العاديات
الأربعاء ١٢/٢٢	آلية الاستيطان في المناطق الهامشية الجافة	محمد الدبيات	جمعية العاديات
الخميس ١٢/٢٣	السياحة والسفر وتواصل الشعوب قديماً	فؤاد هلال	جمعية العاديات
الأربعاء ١٢/٢٩	مملكة ايكالتا في عصر البرونز الوسيط	محمد العزو	جمعية العاديات



برنامج الرحلات
للنصف الثاني من عام ٢٠٠٤

الرقم	النشاط	التاريخ	ملاحظات
٧	اللاذقية – كسب – الفرلق	٧/٢	يوم واحد
٨	معلولا – صيدنايا متحف دير عطية	١٦–٧/١٧	مبيت
٩	حمص – قلعة الحصن – مار جرجس	٧/٣٠	يوم واحد
١٠	بصرى – السويداء	١٣ – ٨/١٤	مبيت
١١	حارم – سلقين – دركوش – كفر تخاريم	٨/٢٧	يوم واحد
١٢	سلمى – قلعة صلاح الدين – صلنفة	٩/١٠	يوم واحد
١٣	صافيتا – طرطوس – أرواد – حصن سليمان	٢٤ – ٩/٢٥	مبيت
١٤	المعرة – أفاميا – قلعة شيزر – ضريح عمر بن عبد العزيز	١١/١٢	يوم واحد
١٥	تدمر	٢٦ – ١١/٢٧	مبيت

برنامج الزيارات داخل المدينة
في النصف الثاني لعام ٢٠٠٤

الرقم	المكان	التاريخ	الاجتماع	الساعة
١٠	الخسرفية – السفاحية – الشيباني	٧/٩	أمام القلعة	٩
١١	الجامع الأموي – الحلوية	٧/٢٣	أمام الجامع الأموي	٩
١٢	مدرسة ابن العديم – جامع التوبة – جامع اشقتمر	٨/٦	أمام القلعة	٩
١٣	خان قورت بك – جامع المهمندار – بيت جنبلاط – مركز إحياء حلب القديمة	٨/٢٠	أمام السبع بحرات	٩
١٤	العدلية – البهرمية – الأسواق	٩/٣	أمام الجامع الأموي	٩
١٥	سوق الزرب – الشاذبختية – خان النحاسين – المدرسة الشرفية – خان الصابون	٩/١٧	أمام الجامع الأموي	٩
١٦	الجديدة – متحف التقاليد الشعبية – الدور القديمة	١٠/١	ساحة فرحات	٩
١٧	معهد التراث – جامع النور	١١/٥	أمام معهد التراث	٩
١٨	باب انطاكية – جامع الشعيبية – جامع القيقان	١١/١٩	أمام باب انطاكية	٩

حديث العاديات

ذاكرة المدينة



وليد إخلاصي*

لو سألتكم حلب إن كنتم فعلتم شيئا لذاكرتي، فصارحوها بقولكم إن النسيان من طبعنا في أحيان كثيرة. لتكن لدينا الشجاعة ونعترف.

لقد كانت حلب الجغرافيا عبر عشرات القرون الأرض التي عمرها البشر وهم يستقبلون ثقافات واحدة وحضارات متعاقبة، ساهمت في صنع حلب التاريخ. وتتبع الأحداث المتراكمة على المدينة من كل فج أو تلك التي يشارك أهلها فيها، سيساعد على إضاءة تفاصيل تاريخها. ولطالما كانت حلب في تكونها البطيء تهدف إلى حياة مدينة حقيقية تتجلى فيها روح النظام في الأحياء وتكون العائلات وفي الحرف والنشاط الاقتصادي والعلاقات مع الآخرين من مدن ودول.

وفي العصور الحديثة، دعمت الحياة السياسية لسورية وجود حلب، وساهمت في دعم الحداثة كما حدث في إقامة المتحف الوطني فيها، والذي استقبل الآثار المكتشفة لعدد من الحضارات التي حطت رحالها ذات يوم في المدينة وما حولها وقد تجسدت على الأرض أو ذوبت فيها، فكان حضورها أو اختفاؤها يدل على رائحة الزمن المعتقة.

ولم تقتصر مقتنيات المتحف على ما حوته حلب بل استقطب هذا المتحف كل ما اكتشف في المنطقة الشمالية ليدل على أهمية المدينة كمركز حضاري فعال لجغرافيا مترامية الأطراف.

أتراه سؤال العتاب يقودنا إلى التفكير بإحداث مركز يحفظ لحلب ذاكرتها وبخاصة في سنواتها التي تمتد لقرن كامل من عصرها الحديث الذي بدأت فيه الحداثة تتسلل إلى الجسد العجوز للمدينة فتلتهب خلاياه ليستوي قامة في حيوية الشباب.

ماذا حدث في المدينة ليكون لها ذاكرة تستحق أن تحفظ فنفكر في مركز أو متحف يعبر عن أهدافنا لما مضى ويساعد الأجيال الجديدة على المضي قدما نحو المستقبل؟ أحداث هامة

* قاص وروائي ومسرحي، رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب بحلب سابقا.

وتضاريس بارزة شكلتها رجالات تميزوا بأعمالهم أو إضافاتهم من أجل إغناء المدينة ثقافياً ووطنياً.

لنتصور أن نشاطاً أهلياً أو حكومياً أو مشتركاً سعى إلى تأسيس مركز لذاكرة المدينة اتخذته واحداً من الأبنية القديمة التي قاومت الزمن بحجارتها وجمالياتها. ولنعلم بأن تحقيق هذا الهدف بات متاحاً لتوفر الوسائل الحديثة كالكومبيوتر وأدوات العرض وطرقه. وأن هذا المركز سيضم أجنحة فيه على سبيل المثال أقسام تحتوي على:

١. مخططات للمدينة، وصور فوتوغرافية ورسوم فنية للأسواق والأحياء والخانات والعمائر من قلعة وغيرها بالإضافة إلى البشر الذين أحبوا المدينة و عملوا لها.
٢. سجل للشخصيات الحلبية المميزة مع أهم الأشياء التي تدل عليها.
٣. مكتبة تضم جميع ما كتب عن المدينة ولها في كل لغات العالم، بالإضافة إلى الوثائق بأشكالها المختلفة
٤. سجل بأهم الأحداث التي مرت بها المدينة كالزلازل والفيضانات وأهم المناسبات وما إلى ذلك.
٥. ما يمكن أن يقر بإضافته مجلس أمناء يشرف على توجيه هذا المتحف، والذي ستكون مهمته أيضاً في تشجيع الأفراد على تقديم أبحاثهم الثقافية وأعمالهم الفنية والتوثيقية.

ولنتصور طفلاً يقف أمام الآلة الموسيقية التي كان فنان كعلي الدرويش أو عمر البطش أو بكري الكردي يستخدمونها، وأن أولئك الموسيقيين الذين كانوا مع عشرات غيرهم يشاركون في إغناء روح المدينة بالاشتراك مع رجال سياسة ابراهيم هنانو وسعد الله الجابري يشكلون جانباً من المدينة. وهناك رجالات كانوا المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، وفنانون تشكيليون كفتحي محمد والفريد بخاش ولؤي كيالي وفاتح المدرس وغيرهم، وكتاب وشعراء كعمر أبو ريشة وسامي الكيالي وخليل هنداوي، وباحثون ومؤرخون ومفكرون كعبد الرحمن الكواكبي وراغب الطباخ وكامل الغزي وسوفاجيه وخير الدين الأسدي، ومساهمون في بناء الكيان الثقافي من مهندسين ومحامين ونحاتين شعبيين وحرفيين وخطاطين ورجالات دين إسلامي ومسيحي. بالإضافة إلى العادات والتقاليد المتمثلة في الطعام والملابس والأفراح والأتراح. كل ذلك سيشكل جوانب مهمة من ذاكرة المدينة التي سيظل التعرف عليها متاحاً لجميع الناس من أجل أن يفهموا ويحبوا وطنهم الصغير.

وسيكون هذا المتحف قابلاً بشكل دائم للإضافة، فإن ما يحدث الآن سيكون جزءاً من ذاكرة المدينة في المستقبل، وقد يكون في عملنا هذا نوع من الاعتذار لحلب التي تعاقبنا.■



العاديّات
فصلية تُعنى بشؤون التراث والفكر
تصدرها جمعية العاديات
Sharif 1998